عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

كتاب اليوم

الثمن ١٠ ص

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

كتاب اليوم
يناير ١٩٥٣

الباب الأول
المسيح في التاريخ

« الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »

سورة النور

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الانعام

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا »

سورة عبس

هذه هى الشجرة المباركة فى التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولاتزال تدور .

عالية تعلو خمس قامات وتزداد

باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد

كريمة تؤتى من ثمراتها ماتشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل الابطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الابطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لايذكرونها بنعمائها : رمزوا بها الى الضياء ، ورمزوا بها الى السلام ، ورمزوا بها الى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وأدخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من أقدس الاسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

لأمر ما نبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، على نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الامين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين الى غايتها من البلاغ المبين

ولو لم تكن «للزيتونة» الا أن هذا الاسم المبارك مردود الى مسحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

يدل علم المقارنة بين الاديان على شيوع الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الامريكية ان القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الامريكتين ، وليس فى هذا عجب . لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية يبثها الخالق فى ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها سبيل الاجتهاد فى طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون «المخلص» المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور (fpuwer) ان المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه » (١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الارض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل انه هوزرادشت رسول المجوسية الاكبر الذى يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام وأشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم بن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل ألف عام يظهر رجل لانظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه »

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فنيجان

اما الايمان بظهور رسول الهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، فى التلمود والهجادا وماأليها

ومرجع التسمية نفسها الى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج ومايليهما من أسفار الانبياء . فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ماورد ذلك فى الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب انه « بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت ايل - أى بيت الله »

وجاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا : . . وانت تأخذ أفخر الاطياب .. دهنا مقدسا للمسحة .. وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل انيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة . . وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل مامسها يكون مقدسا ، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم .. »

وكان الأحبار والانبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الاصحاح السادس عشر من سفر الايام : « لاتمسوا مسحائى ولاتؤذوا أنبيائى »

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار ومنذور ، فسمى كورش الفارسى «مسيحا» كما جاء فى الاصحاح الخامس والاربعين من سفر أشعيا ، لان الله أخذ بيده لاهلاك أعداء الاسرائيليين وأقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمى الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص

شعبك : خلاص مسيحك » بمعنى الشعب المختار

وتكررت فى كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور ، لانهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الاول ، فردد الشعب الاسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك الى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الامم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك الى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته فى بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التى امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره فى سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء فى الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » . . وجاء فى الاصحاح التاسع من سفر زكريا أنه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » . . . واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتى مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبى ايليا (الياس) منبعثا من الأموات

وقد كان هذا الارتقاء فى فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الاسرائيلى فى تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء فى المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل فى استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء الى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا أن

الأمل فى الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين فى حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل فى قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع فى انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا وتفترقان بل تتناقضان جملة أحيان • فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومى كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الاجنبية ، ومن الناحية الاخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد

النبوة بين بنى إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة فى الشعب الاسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه ، فان أحوال النبوءة فى ذلك الشعب لم تكن على الصورة التى تسبق الى خواطرنا من النظر فى تواريخ كبار الانبياء ، وتواريخ الفترات التى مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ونعلم عن يقين أن الذى يقدم على ادعاء النبوءة فى عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الاديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبى الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه انه يعلمهم مالم يعلموه من كتبهم ومن أقوال أنبيائهم ، اما المنكرون والملحدون فهم لا يقبلون دعوى النبوءة فى هذا العصر ولافى غيره من العصور

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين ، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الانبياء حادث جلل لا يتكرر فى كل جيل ولا يراه الانسان فى عمره مرتين

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لانهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء

مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم الا اعنتوه واقاموا له العراقيل

أما أحوال النبوءة فى بنى اسرائيل فينبغى أن نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخالفه من جملة وجوه

فأول ما هنالك من الفوارق أن الانبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الاول حيث جمع ملك اسرائيل « الانبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم أأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟ »

وخير ما ورد فى وصف مكان الانبياء بين بنى اسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فقد كان عمل النبى فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة فى وقت من الاوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الانبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الانبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد اسرائيل « أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه فى أفواههم (١٨ تثنية) وان بعض هؤلاء الانبياء قد يتحدث الى الناس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » .. « وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب .. فلا تخف منه »

بل يجوز أحيانا أن تصدق الاقوال والعلامات ولا يجوز

للشعب أن يستمع الى وصايا الانبياء اذا دعوه الى عبادة رب غير اله اسرائيل ... فاذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو اعجوبة .. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا أن دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ...(١٣ تثنية)

ولم تكن النبوءة باذن من ذوى السلطان أمراء كانوا أو كهانا أو شيوخا مطاعين فى القبيلة ، بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا .. كلمة الرب جللتنى بالعار والسخرية .. فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان فى قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى .. فلم تكن لى طاقة بالسكوت » (٢٠ أرميا)

وكثيرا ما كان النبى ينحى على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الى الارض كلها ... فلا تسمعوا كلام الانبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء » .

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : من أين عبر روح الرب منى ليكلمك »

وكان المعهود فى الانبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والانهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما

شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولاخمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت الى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عينى ونظرت »

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء فى سفر صمويل الاول : « انك تصادف زمرة من الانبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب (٩ صمويل أول)

أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « فقال اليشع حى رب الجنود .. الآن فأتونى بعواد» . فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون فى جوانب الانهار « عند نهر خابور أنفتحت فرأيت رؤى الله » (١ حزقيال)

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انسانا من غير الانبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الانبياء والمرسلين

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما أذن للنبى أن يطلب الآية ويمعن فى طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ أشعيا)

على أنهم كانوا يلجأون الى الانبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم أنهم أقرب الى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين فى هموم الحياة ، ومن هؤلاء الانبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا ومن كان يحسه الهاما أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا

يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن سنة الاقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الانبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة، ولم يكن فيها خطر على النبى الاحين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد الى التنكيل بالنبى فى هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبى الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وان الانسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياما بعد أيام، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن ارادته ، ومتى استقر فى سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف فى الايمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش ... الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس اليه كما يشاء

وفى عصر الميلاد ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه - لاجرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه، خوفا من سهولة الدعوى على الادعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم .

الطوائف اليهودية
في عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصرالذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود

والتعريف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى اسرائيل

وضرورى من جهة أخرى لانه - فيما نرى - أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جازوا الشك فى النصوص والروايات الى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الاساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد، لان الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذاهب جميعا، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ، وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين ،وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم فى دعواهم أتباع « صدوق » وأسرته الذين

تواترت الروايات بأنهم كانوايتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان

وكانت طائفتهم مهمه بمراكزأصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء

وقد كانوا متشددين فى انكارالبدع والتفسيرات . متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع

وتدعوهم المحافظه على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقدكانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ أنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن ، فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان،ويملى لهم فى هذه النزعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الاولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الاخرى التى تؤمن بالبعث والحساب

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين .وهما«حنانيا»و « قيافا » .. ولم يكن فى ذلك عجب . لان الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لايستريحون الى الثورة والانقلاب

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرفيون فى مسائل الدين متوسعون فى مسائل المعيشة ،وانهم يعاشرون الاجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ،لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الاجانب، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ، وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتـ[illegible]ـا لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الاولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبنى اسرائيل جميعا كما يروونه فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » .. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الاحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الاخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان «الرسمى» حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الاجنبية، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ،

وينكرون فى الوقت نفسه عادات الاجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين

وقد كانت ثورتهم الاولى ثورة على البدع الاجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « أنطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحى فى مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها ، فسأل زعماءهم . كيف يخطر لكم ان تحاربوا قيصر ولستم اكفاء ' ربه ، فقالوا . نحن لانحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لاثبات ما يقولون

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم الى اقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم ... فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » أشد من المتشددين

الا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الامور التى تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب الى التصرف والقياس ، أو أقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون

أقرب الى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية أشد ماينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح ، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان .

واذا وصف الصدوقيون على الاجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم «هلل» الذى قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الاجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شماى» وهو أقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة « ان الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » .. وشريعته فى المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهى ألا تصيب أحدا بما تكره أن تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الاحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم شماى فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ، وروى أنه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وأن غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على التجديد والتصرف فى تأويل النصوص .

والقول الراجح بين المؤرخين أن معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفريسيين .

***

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويها أو تزيد عليها فى القوة والاثر هى طائفة الآسين أو الاسينيين كما يكتبها رواة الاخبار عنها فى عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لانهم طائفة من صميم الامة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن « الهيكل » كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الاقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة « آسى » بمعنى الطبيب أو النطاسى فى اللغة الارامية ، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لانهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والاوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير .

وقد نشأت الطائفة على الاغلب بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، واقتبست من المدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل .

وكان حراما عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو

زوجين من النعال أو يدخر الامتعة والاقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة .

وكانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات . درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة فى الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الاسرار ، ثم ينقل المريد الى درجة الواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس فى يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الاولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الاساتذة ، منها الاغتسال وتلاوة بعض العهود ، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الامانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق او الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث فى يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح فى ذلك اليوم ازالة الضرورات .

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهى فى مذهبهم عمل خبيث او غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخباثة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم ،

وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الارواح ، وهو عالم سماوى فى أعلى الاثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان أو فى الاحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضى من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب أن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد أن يكون الغلاه او الجليليون أتباع يهودا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لانهم يسلكون مسلكهم فى التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات فى السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم أن طاعة القيصر من عبادة الاوثان ، وأن احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاه اليه وانتزعاه عنوة وأنذرا اخوانهما من يعيده الى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الاحصاء بقيادة يهودا الجليلى ومات هو وأبناؤه وذووه فى ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات

الثلاث ، فكانت تؤثر التقيــةوالمداراة فى معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة الا اذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة .

***

والطائفة السامرية خليط من اليهود والاشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية أرسلهـا ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبائل اليهودية التى نفيت الى مابين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الاوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم ، وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التى تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين فى عصر الميلاد حتى بطل الامان فى السفر

بين السامرة والبلاد الاخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال .

***

ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القديم بين مملكة يهودا فى الجنوب ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون ، وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فاذا اعتقد اصحاب مملكة يهودا فى الجنوب ان عاصمتهم ـ بيت المقدس ـ هى مقر الملك المنتظر ، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد الى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم ، ولكن السامريين ابناء الشمال كانوا يلجون فى عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الاسباط ، وينكرون على الاقل عقيدة الخلاص على يدى ملك من أسرة الملك فى يهودا ،وبفتحون بذلك السبيل الى الايمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ، ويزعزعون الثقة فى احبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك ، اذا حان الموعد المقدور

ولم تخل البلاد جميعا ـ مع هذا ـ من اس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا فى الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم فى اعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا فى بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذى تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات ، وكان هذا الناسك الثائر يعيش فى عزلة

ويأكل مما يتفق له بغير سعى ولامسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكى بالرياضة والتلاوة ،وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه فى شعائر الاعتزال والاغتسال ، وأشهرهم يحيى المغتسل المعروف فى الاناجيل باسم يوحنا المعمدان !

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمى » المعهود ... أوموقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو لذاك،ويجتهدون غاية اجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة . ولاسيما فى أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما أن الله يتجلى فى هذه الخيمة للانبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل أنه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المثقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد أن قام فى مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسى باعادة بنائه فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف اليه ، وتم ذلك أو كاد فى عصر الميلاد .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر

الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويتمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لانه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من أعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد .

***

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لايتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل امامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الاعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ويقتسمون جميعا فى النذور والمرتبات .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى اقامة الصلوات ، ووجد الى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه ، وهؤلاء هم جماعة «الكتبة» أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا - كما تقدم - يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة

ويرفضون كتب الانبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص ، وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم فى المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » .. وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الاحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب فى «السنهدرين» أن يرجعوا بأصله الى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدداذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الى سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله انت وحدك »

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو

من ذكر السنهدرين ، الا اشارة عابرة هنا وهناك لايستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لاريب فيه أن المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ،وكانت أحكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء

واذا نظرنا الى موقف هـذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتظر» لم نكد نرى فيها باعثا الى الترحيب بتلك البشرى ، لانها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لاتستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هى باب الامل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من زجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الامل فى شيوعها وانتشارها ، وهى اذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم ، لان الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم انهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة الى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا

ينتسبون الى جماعة واحدة غير جماعة الامة بأسرها .

والكلمة باللغة العربيه ترجع الى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت على مايظهر للجهاد فى سبيل الدين ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعه . وربما كان من عمله ان ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت . ولا شك أن المادة تدور حول هذا المعنى فى العبريه مع اختلاف الحروف والاوزان .

ولا يشترط فى النذرى أو المنذور ان يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسه الموتى أو الاجسام المحرمة ، وعليه ان يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذورا لأجل مسمى . وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته . ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى عاموس بلسان يهوا الله بنى اسرائيل . وأقمت من بينكم انبياء ومن فتيانكم نذيرين .. لكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الانبياء أن يدعوا النبوءة . والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى . وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل الف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كالف سنة كما جاء فى المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع الهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم الف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية mellinnium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الارض الى نهاية الالف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عندالله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليفة ، وكانت بداءة الالف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الامر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الارجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الارض التى فتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الاناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة الى المنذورين والنسبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون الى

كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء اليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود .

الحالة السياسية والاجتماعية
في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة «سبارتاكوس» المشهور

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التى أضافت الى مجد بومباى وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الابطال والدول مجدا لاينطوى على خير كبير ، فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على اضعاف هذا العدد من الارقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول «عبد» شرقى ثائر على الدولة الرومانية، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه هى الثورة التى تجلى قائدها «اونس» لأتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ،وكان أصله فى سورية وكثير من أتباعه شرقيون

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ بلغها من العنف ، ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة «الشمس» رمزا الى عبادة النور والحرية ،

وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصلحين من ساسة الرومان فى الاجيال القريبة التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Gracchus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه الى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الاجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون « ان ملاك الارض فى مدينة رومة لا يزيدون على ألفين » .. وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فآلت المستعمرة الافريقية الى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها ألوف من الارقاء المسخرين

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه »

***

والواقع انه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الاعداء وتقمع الثائرين ، وألقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سندا لا

غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة الى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر الى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب اله ، وقررت عبادته مع الالهة ورصدت له شهرا فى السنة لا يزال معروفا باسمه الى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عنيها آخر الامر أن تجد القياصرة العسكريين

وكان ا"انون والنظام فخر رومة ا- ول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين: ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق فى رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على اثر افتتاحها ، لان التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ،وانقسم الر [illegible] ـمين بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خرج بهم الى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس بن اورسطبوس ، فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه،

ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الادوميين، عرف بفراسته وبعد نظره أن الكفه الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان، فانضوى اليها واستبسل فى معونتها . فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد، فتغالى فى الغيرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى فى محاكاة الرومان والاغريق بالازياء والمساكن والشارات والاسماء . وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته ، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية، كلما احتاج الى التوفيق بين النقيضين

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر باجناده فحملوه الى المحكمة، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء ! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل ـ حيث ولد السيد المسيح ـ فى حصة هيرود الثانى انتيباس ، ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس، ووقعت مشارف

الشام فى حصة فيلبب، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك الى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدى القيصر ، فهذا الذى يشير اليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول مافحواه : « كان انسان شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون : لا نريده ملكا علينا .. »

ولكن القيصر أقر الابناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر ، وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين

ومن المتواتر - مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد - ان السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لانهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الامر بالاحصاء العام ، وليس الاحصاء بطبيعة الحال سببا ... لاشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة . ولكنه اشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين : احداهما مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى انه هو الاله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له الا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فاذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان .

وقد حسب الشعب الاسرائيلى أن الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين

بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الافراد بالاسماء بل يؤخذ جملة على الاكوار والاقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون اداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه . ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه امام جمهرة الشعب عن اداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز « فأرسلوا اليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين : « يامعلم : انك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ » فكان جوابه المشهور أرونى معاملة الجزية ! ونظر الى الدينار الرومانى فسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : أعطوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وأسكتهم جوابه لانهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يستنكرون اداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها ، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين احداهما للهيكل والاخرى للدولة ، وقد جاء فى الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : ما تظن ياسمعان ؟ ممن يأخذ ملوك الارض الجباية أو الجزية؟ أمن بنيهم أم من الاجانب؟ قال له التلميذ : بل من الاجانب، فقال السيد المسيح : اذن أن البنين أحرار .. ولكنه عاد فأمر

تلميذه باداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان اداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه - مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة - كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء ، لان الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة ، فاذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة الى الشعب وكان الشعب الاسرائيلى لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الاجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع الى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالامانة فى الجباية ... يسألونه : يامعلم ! ماذا نفعل ؟ فيقول لهم : لاتستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد . واكتفوا بعلائفكم .. لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والاوربيين أن الحالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها

على افراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء أن يتصفح الأناجيل كائنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى أقالم فلسطين ، ولا سيما اقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما .

الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والاطراف ، وبينهم من يقال عنه أن جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ،وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول فى مختلف الأعمار، وهذا الى أمراض البرص والنزيف والصرع الذى لا يقترن بالجنون

واذا كانت هذه هى الحالات البارزة فالى جانبها ولاشك حالات اخرى دونها فى الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التى فشت فى ذلك المجتمع وتركته مهيض الاعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا ان عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحانى ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج ، واذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الاعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية فى جملتها فليس احوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس اشد منه تعطشا الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية

حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل الرواد السابقين ، وقد كان اقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هــو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء . واثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه وهو بلاط الملك هيرود . فانهــا البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الاخوة والابناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنــكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهــير كفئا لجسارة الطاغية الاثيم على الدنس والخباثة ، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجــر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبى هــدية لراقصــة مبــذولة الجســد ، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة او عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدأ المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء

الحياة الدينية في العالم
في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ماعدا الشرق الاقصى ، واصبح من رعاياها اناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند الى الشواطيء الاطلسية ، وكثر الحديث بين الناس عن الارباب والاديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس ان ينظروا الى الامور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية

واعظم من هذه النظرة العالمية أثرا في موضوعنا - عبقرية المسيح - ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من اطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة واتباعها ، وهي التي انتقلت من الامم المحكومة الى الامة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها

وليس في الامر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لاول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب في تلك المرحلة

كان هو السنة الطبيعية التى تؤيدها جميع الاسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقا للقياصرة وموافقا للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الالهة فى اجسام الملوك، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ،وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس – خليفة الاسكندر – بطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى او صاحب الشارة الالهية

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط الى الجيوش التى كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمنا ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الاحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط ان يتعصب لعبادات رومة او يعرض عن عبادات غيرها فوافقه ان يتشبه بالمشارقة كما الاسكندر – لطلب الربوبية من القياصرة !

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الاسرار العلوية وأنه تعلم من خبر السماء مالا تعلمه الامم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالاسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل

فى القدم ، لاتزال بقاياه فى التقويم الاوربى من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب

فلا عجب ان يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لابناء الشرق بأخبار السماء واسرارها ، مادامت الارض فى ايديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم الرومانى نحلة « مثرا » ونحلة « ايزيس » ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة اورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هى ايضا الى الشرق القديم

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى اقصى اقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى بالبلاد الانجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لان « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما صفة النور الذى يبدد الظلام والحق الذى يمحق الباطل ، والاخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على اله الشر أهريمان ، وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى اعمالهم الليلية ، ويعتقدون انه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس الى استطلاع الاسرار والطموح الى الترقى فى درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعبادة درجات سبع ينتقلون فيها من درجة الى درجة على ايدى الائمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا او جهرا على

ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا الى حلاوة الايمان

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية فى غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهى صفة الامومة الكبرى او صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمز اللامومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم فى الغرب محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والاسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الاسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولاشك ان المراسم السرية التى تلازم نحلة ايزيس كان لها أثرها فى تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الاثر فى عبادة مثرا وما شابهها من العبادات

وخرجت من مصر ايضا نحلة نوية على قلة عدد المنتمين اليها ، وهى نحلة المتنطسين Therapeuts التى ذكرها الحكيم الاسكندرى اليهودى فيلون ، وقال ان اتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك فى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليونانى معناه الاساة او المتنطسون ، واكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة . ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنسين هم اساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين او الاسينيين ، واشرنا اليهم فى الكلام على فرق اليهود

ومما يلاحظ ان نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع

بين الرومان ماكان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الاسرار الدينية اختصاصا للشرق القديم ويرجعون الى اليونان فى مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد ان تحولت الديانة « الاورفية » الى ديانة شرقية تجرى على سنة الشرق فى التقشف والاخوة الروحيه ، وقد نشأت الاورفية اليونانية نشأة فنية وقيل فى وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى اليه ثم اصبح التأليف بين الضوارى والنعم رمزا الى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الاقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيض ولا يذوقون الخمر الا فى مراسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الاقدمين فى اساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس، اله الربيع ،وكثيرا ماقيل فى كتب المقابلة بين الاديان ان اتون الاله المصرى وادونيس الاله اليونانى وادوناى بمعنى السيد او الرب باللغة العبرية اسماء عدة ترجع الى مصدرها المصرى القديم

***

ومن الواضح ان هذه النحل التى كانت تصطفى الاعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الامم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها اشبه بالروابط والجماعات التى تضم اليها المشتغلين بغرض واحد اوالمتفقين فى المزاج والعاطفة ، وكانت اقرب

الى الجماعات الفنية الرياضـيةالتى تقوم على تخير الاذواق وتوحيد العلاقات بين الاشباه والنظراء ،فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون او يرجـون ان هذه الحقـائق سر من اسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون المدربون ، وكان لهـا طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العـامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الالفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية او فنية فهى عنده بمثابة الاندية التى تصون روادها من الاخلاط و « الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والاسفاف

ولكن الـدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحـل فى عصر الميلاد انها «اولا» علامة على طلب الاعتقـاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء فى جـو التقاليد والمعتقدات

وانها « ثانيا » علامة عـلى الوجهة العالمية التى اخـذت تسرى فى انحاء العالم المعمور وتؤلف بين ابناء الامم المختلفـة فى طلب العقائد الروحية ، لان هذه النحـل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على احد من اجـل جنسه واصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهـو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها الى اعلاها

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها . وكانت على دأبهـا سادرة فى عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل فى هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين اتباع الديانات المختلفـة وتضمهم جميعا بين حين وآخر الى محافل الاعياد العامة التى تقام

لهذا « الرب » او لتلك « الربة »او تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الاقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، اذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لاتهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى لايكلف الدولة شيئا ان تفرح جماهير العامة بالاعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام

وجملة مايقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمور انها كانت حياة تقليد او حياة تطلع ورغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ،وانها كانت تجرى فى مجراها الى « العالمية » التى تعم الناس ولاتخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها واصلها ، واهم من هذه العالمية فى النحل والمحافل «عالمية» فى اللغة والثقافة حطمت اقوى الحواجز التى كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هى لسان « يهوا » الذى يخاطب به الانبياء ويناجى به الكهان فى المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحى باللغة الآرامية ، ومايشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها فى عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هى اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هى لغة الاناجيل ، وكانت السريانية لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض اكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح

***

واهم الظواهر التى تسجل فى سياق الكلام على الشؤن الدينية

العامة قبيل الميلاد ان العقائد الوثنية كانت فى حالة اشبه ماتكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس ان القيصر أغسطس جمع فى سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة ألفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وامر بها فأحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها فى صندوقين مذهبين ونقلها الى معبد الاله ابولون ، وفى هذا الخبر خلاصة اخبار العقائد الوثنية فى ذلك الجيل

الحياة الفكرية
في عصر الميلاد

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، واكثرها الفيثاغوريه والابيقورية والرواقية ، وهي التي تعنينا فضلا عن شهرتها ، لانها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هذين المذهبين - على تناقضهما - ردفعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي طلب السكينة والراحة ، الا ان الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الامم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهي جميعا اقرب الى النشأة الشرقية ، لانها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في « اخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة او امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس أنه ابن الاله « ابولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لانهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الارواح ، وان الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الاعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح والا يلتقطوا شيئا وقع على الارض ولا يقطعوا الزهر من

الشجر ولا ينظروا فى المرآة الى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لانهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحا تسكنها الى حين ، وعندهم ان الناس درجات بشر وانصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء فى اخوته ويوجب المشاركة فى الاقوات والمقتنيات التى تصل الى ايدى الجماعة ، ويؤمن اتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه ٠ فالعالم فى رأى الفيثاغوريين كساحة الالعاب الاولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها اناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها اناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم ارفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان

والافكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق ا-مة ثيو. Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة « والانسجام » بينه وبين موسيقى الكون ٠ اذا الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الاربعة ، لعله كذلك عندهم لانه يجمع العناصر الاربعة التى تخلق منها جميع الاشياء

وقيل ان لهم أغراضا سياسية وانهم كانوا يتآمرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقدعاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته او اخوته فى جميع الاقطار ، ولاسيما الاقطار التى اقام فيها اليونان المستشرقون

أما الابيقورية والرواقية فقدظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين فى جميع انحاءالعالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان او يمكن ان تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الاشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هربا من الاضطهاد ، وقد اقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى حديقة المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين

واذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لانه كان يقضى معظم ايامه على الخبز والماء اوعلى الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات، لانه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وافضل السرور مالم يعقب ألما ولا ندما ، ولهذا كان يجتنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقدكان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك وسرور مستقر او ساكن، وأفضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة .

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الالم والندم ، بل لايرى كيف يتخيل الحكيم «الخير» اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع » ومن اعرض عن سرور يستطيعه فى غير ألم ولا ندم فهو احمق وليس بحكيم

وقد انحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه

لانها محشوة بالخرافات والاكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الارباب والمخلوقات الا فى لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود ... ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها الى الاسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه الى الارباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه فى السرور والالم ، فان لم يكن فى الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور فى عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لان الابيقورية - خلافا للرواقية - لا تعفى أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم او ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها فى أصول منظومة اشبه بالاوراد الدينية التى يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة

***

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات ، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبة الالم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لابناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجرى على حسب المشيئة الالهية ، والوحى والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقى الانسان بالعقل مع الالهة وبالجسد مع الحيوان الاعجم . وفضيلته الانسانية هى ان يطيع العقل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هى طلب المعرفة ، وسعادة

الانسان كلها هى السعادة التى تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك او هو فضول لاخير فيه

وقد نشأ الرواقيون الاول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله اصل واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الاكبر «زيوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حرا من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية ، نصبح بنعمته اخوانا لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة وانما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة فى النفس التى تعبد وليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا: « اهدنى يازيوس ، ايها القدر . خذ بيدى الى حيث اردت ان ترسلنى . خذ بيدى اتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فأحجم ، وتريثت فمن أتباعك لا مهرب لى ولا نجاة »

ويتبع الرواقى طريق القدر لانه هو الخير ليس هو ضروره وكفى . فان الاله الاكبر لا يريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا الا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء

وقد اخذ الرواقيون من الهند ـ بسبيل فيثاغوراس على مايظهر ـ ان العالم ينقضى ويعـود فى دورات ابدية لاتعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم ان ارواح الحكماء تبقى فى كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها مايشمل العالم كله من حريق النار الابدية ، وهى النار التى تطهر جميع الموجـودات لتخلص من اوشابها ثم تعـود دواليك فى وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للائمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين فى هـذه المدرسة زينوز (٣٤٠ ـ ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ ـ ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعا من الفينيقيين او من اليونان الذين استشرقوا واقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقى الاكبر ـ زينون ـ كما لخصناه فى كتابنا عن الله « ان الاله جوهر ذو مادة Soma

وان الكون كله هو قوام جوهر الاله ، وان الاله يتخلل اجـزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos

وهو بعبارة اخرى مرادف للعقل الحق Orthos Logos أو الكلمة الحقة ـ هو والاله زيوس شىء واحد يقوم عـلى تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والايام صفة الهيـة ويعتقد ـ كما اسلفنا ـ ان الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى نار. جميع خصائص الموجودات المقبلة واسبابها ومقاديرها ، فتعـود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حـراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها ومن شابهها من الاسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لاشريك له فشاء ان يخلق الدنيا فاصبح هواء واصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق Sparmatikos Logos كما تجرى مادة التوليد فى الاحياء ، فبرزت منها مبادىء الاشياء وهى النار والماء والهـواء

والتراب ، ثم برزت الاشياء كلهامن هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة ، لان مايتصف بالعقل اعظم مما يتجرد منه ، ولا شىء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لانه عظيم . ويفسر زينون تعدد الالهة فى معتقدات العامة بانهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الاساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات ان هى الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية »

وآخر الاقطاب الرواقيين قبل الميلاد ـ بعد زينون الذى اشرنا اليه ـ كان يعلم تلاميذه ان الروح لاتفنى بفناء الجسد وانها ترتقى صعدا فى السماء على حسب ارتقائها فى المعرفة والفضيلة ، فمن الارواح ما يرفرف على مقربة من الارض ومنها مايحلق بين الافلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى الحانها فى مسراها الى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند فى بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها فى بحوثه الفكرية الدينية ، نقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « الرواقيون والشكوكيون » Stoics and Sceptics ان المسافة بين قادش والهند سبعون الف ستادة ، وهى مقياس يونانى يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال ان هذا التقدير كان فى حساب كولمبس عندما قصد الى الهند من طريق البحار الغربية

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الاثر الذى أعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى الى أقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الاثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والارقاء بعد ظهور امامه الاول ـ زينون ـ بنحو اربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق ابيكتيتس (٦٠ ـ ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير

ماركس اورليوس (١٢١ ـ ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق واقاموا فيه

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها افكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من ازياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالاجانب ، ولكن شيوع الاقطاب الشرقيين بين الرواقيين كاد يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التى لايتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشيا مع نزعتهم الى التجديد

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع اثر المذاهب الفكرية فى العالم الاسرائيلى ان عصر الميلاد انجب اكبر فلاسفة الاسرائيليين فى العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذى ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد ، ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد اخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس اول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال انها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم واخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس وعبادة اوزيريس سرابيس التى تأسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وديلبى وروما وبعض الموانىء الاسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب اصحاب الشرائع الذين يحصرون احكام قومهم فى الحلال والحرام بغير

تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب اصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الالغاز والزيادات وانه روى ت ة الخليقة رواية تتضمن ان الدنيا مطابقة للنظام (او الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقا لمشيئتها

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق « ان معنى اسحاق فى لغتنا الضحك . ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى يأتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قربانا الى الله مبينا بذلك فى هذا الرمز ان الفرح على صلة وثيقة بالله وحده . اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله »

ومذهب فيلون فى الصلاة ان الانسان يصلى شكرا لله على ما فى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعا رجالا ونساء ويونان وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة ان تستجاب

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة اقسام : وليد الارض ووليد السماء ووليد الله ، فوليد الارض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرد عن الدنيا واقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لان اختلاف المكان لا يصنع شيئا وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، يهدى ركاب الروح الى حيث يشاء

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن

الشرائع الخاصة» أن الله لايفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لانه مالك كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم اليه بنفسه لايحتقب شيئا ... صدق وخلوص النية اكرم عنده ممن يبذل الاموال ويسيء الاقوال والفعال ».

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بنى الانسان كافة ، وكان يقول ان اسرائيل انما سمى بهذا الاسم لانه ينظر الى الله ، فكل ناظر الى الله اسرائيل . ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى اسرائيل انهم هداة الامم وانهم أحق شعائر الانسان باعجاب جميع العشائر فأن الاثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الاثينيين ، ولم يعهد فى المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين او فى السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الاقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة اقدس من الشهر الحرام فى عرف الاغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالافراط فى الشراب والطعام وشهوات الاجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى اسرائيل

يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة ان اسرائيل بين الامم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لايأخذ بناصرهم احد اذا تألبت الاقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون انفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض الى النفوس • ومع هذا يقول

لنا موسى ان يتم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الـذى وقعت اسرائيل من نصيبه وفرزت من العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والاب الرحيم »

***

تلك غاية الشوط الذى انتهى اليه فيلون فى زمنـه ولا يعتبر فيلون من الائمة ذوى الاتبـاع فى الديانة الموسوية ، ولكنـه يعتبر نموذجا صالحا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى أوائل عصر الميلاد

جـلـيل الأمـم

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليل الامم - كما كان يسميها الاسرائيليون ، لانها كانت اقليما مفتوحا لجميع الامم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيلين وحدهم فى زمن من الازمان

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لانها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد اخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب

وكانت الجليل جزءا من اقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم اطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» من اللون الاحمر على مايظهر ، وهو لون الصخور والجبال

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الابيض الى خليج فارس الى اقصى المشرق واشتهرت فى هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لان الشواطىء الجنوبية خلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء ، وهى يومئذ قليلة الامن كثيرة التكاليف

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع .مم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولاسيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة حتى تواتر ان تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الابجدية فى بلاد البحر الابيض ، ومنها انتقلت الى سائر الامم الاوربية

وقد دخل بعض بلاد الجليل - او كنعان - فى مملكه داود بعد

انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين ان اليهود اخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة، وجاء فى العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان فى تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك ان سليمان ارسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه ان يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ويقول له : « انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » . ومنه وصف المهندس الذى كان ابوه من صدر وامه من سبط نفتالى « وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل فى النحاس » (١)

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الامم الاخرى

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شؤن الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ،فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها الى عقائد الكنعانيين ،والى ذلك يشير العهد القديم فى سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم وتركوا اله آبائهم الذى أخرجهم من ارض مصر » والى ذلك أيضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الاول حيث يقول النبى ايليا « ان بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا انبياءك » الى ان يقول : « وقد ابقيت فى اسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله »

---

(١) الاصحاح السابع من الملوك الاول

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين فى الاقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة ، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم الى الخوارج الذين انقطعوا عن اصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم، وكان الواقع ان اهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهى لغة اهل سورية الداخلية ، او باليونانية ، وهى لغة القادمين من البحر او من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لانهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين ان الفينيقيين الاقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسى التى جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية

وبلغ من بغض أهل اليهودية لابناء ملتهم فى الشمال ان « حنا هيركانوس » المكابى اغار على الاقاليم الشمالية ، ومنها بلاد فى السامرة وبلاد فى الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب وخير ا[illegible] فى الشم[illegible] أو قبول ا[illegible]تان وشار[illegible] اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم واجدادهم او من البلاد التى استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث اهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب

ومما اتفقت عليه اقوال المؤرخين وتردد كثيرا فى روايات التاريخ ان جمهرة كبيرة من اهل الجليل كانوا عربا يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة اجنبية يلحظها اهل الجنوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير روية ، وكذ[illegible] عرف الحواريون فى الهيكل كما كانوا يعرفون فى كل فلسطين

وقد كان من الامثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم « انه لاخير يأتى من الجليل ، وفى انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه « انا وجدنا الذى أنبأ عنه موسى » وانه من الناصرة فى الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجىء شىء صالح » (١)

وفى انجيل يوحنا ايضا يروى عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين « انه لم يقم نبى قط من الجليل » (٢)

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل واهله فى نفوس ابناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل ارض الجليل اصلح منبت للدعوة الانسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر ، فما كان من اليسير ان تنبثق دعوة الاخاء بين الامم فى كنف الحجر والجمود

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات ان الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وانها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هيرود انتيباس وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الامير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه فى نحو العاشرة يسمع اخبار هذه الضربة ويسمع اخبار الثورة التى تقدمتها واعقبت بعدها ما اعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب او مشكلة السماحة الدينية حديث صباه واول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة

---

(١) الاصحاح الاول

(٢) الاصحاح السابع

الجديدة باسم العاهل الرومانى طيبريوس سمع ولا يمك تعقيب الكبار على . ت الملق المر وشهد العبث من ذوى السياسة والامارة قبل الاوان ، وادرك ان العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، وان الطــاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفســه البريئة فى آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكــوت السماء صــورة غير هــذه الصورة ، تخــالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الايام

تاريخ الميلاد

يفهم من رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الاولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الامم الاوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) الى تاريخ الايام من السنة الاولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه الى الآن

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات الى التقويم القديم الذى يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الاولى ببضع سنوات ، وأنه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الاولى للميلاد

ففى انجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الاولى للميلاد بأربع سنوات

وقد جاء فى انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومه ، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الاولى للميلاد بأربع سنوات

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب – أى الاحصاء – فى كل المسكونة ،وأن هذا الاكتتاب الاول جرى اذ

كان كيرنيوس واليا على سورية» فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف... من مدينة الناصرة الى اليهودية ... ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر »

والمقصود بالاكتتاب هنا - على ماهو ظاهر - أمر الاحصاء الذى أشار اليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لان تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد ولد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الاخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الاحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح أنه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى أنه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الاحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى فى عهد ساتورنينس Saturninus والى سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الاولى للميلاد

ومن القرائن التى لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذى قيل أن كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به الى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك

والتنجيم ، وانهم كانوا فى عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين الى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفى داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الالهية ، ويكفى أن نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية الى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الارصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة فى لزومياته

قران المشترى زحلا يرجى | لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية فى ضلال | وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا | قبائل ثم أضحت فى ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل | وخلفت النجوم كما تراها

فاذا كان هذا ما تخلف من العناية بالارصاد فى البقعة الفينيقية الى أيام المعرى فليس من الامانة للبحث أن نهمل قرائن الارصاد كل الاهمال، لاننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الافلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه «حياة المسيح»(١) أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل حوالى سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار في وصف هذه الظاهرة : « ان قران

(١) الجزء الاول صفحة ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل

المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعدمائتى سنة ، ولا يعود الى المثلث الاول بعد عبور فلك البروج كله الا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى مثلث النونين أو الحوتين وأن المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية .

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الاحرى على وجه التقريب ، وأن السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد

ونعود فنقول أن اثبات الرصد لا يستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الافلاك ، وكل مايفهم ، ولا يجوز أن يهمل ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الاناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب «باركوكبه بالعبرية» ونقش على العملة التى سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الاناجيل الى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة

***

على أن الدراسات الاخيرة فى علم المقابلة بين الاديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما الى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات

العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الانبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك الى الأدب كما سرى الى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ أنها وجدت فعلا ولكنها لم تضع ما نسبوه اليها ولم تكتب ماينشر بأسمائها

وقد زار فولتير - أمام الشاكين - بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الالمانى ويلاند : هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ .. وجاء القرن التاسع وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الالمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع ، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الاساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب الى الاساطير والفروض

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus

وتاستيس Tacitus وسوتينوس Suetonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة الى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة الى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: « انه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس ــ أن جاز أن يسمى انسانا بعدما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والاغريق ، وكان هو المسيح »

قالوا : ان يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو أنه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أو تفصيل

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذى ألف كتابه «مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الاولى فى سنة ١٨٣٦(١)

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ،

Introduction to thc Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures.

وأن العبارة نفسها مرجودة فى النسخة العربية التى تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وأن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وأن يوسفوس قد أشار فى موضع آخر الى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : « ان حنانا عقد السنهدرين اليهودى وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة »

قال هورن : ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة فى تاريخهم الاشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التى يدعيها .

وألمع هورن الى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لانها لم تذكر قط فى كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لاصحابها لان أقطاب المسيحية كانوا فى غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح فى نبوءات كتب التوراة .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودى مؤمنا بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة .

أما المؤرخ الرومانى تاسيتس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع الى

أقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل أشار الى اسمه فى سياق الكلام على حريق رومة حيث قال ان الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذى حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت فى عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس فى رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال فى تأريخه لقيصر كلوديس « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لان الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب وكريستس بمعنى المسيح

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته الا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثانى للميلاد ، وانه كان يحسب أن الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه فى ذلك التاريخ .

وقد عاش فى عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش فى الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الاول للميلاد ولم ترد فى تاريخه اشارة مباشرة أو غير مباشرة الى الدعوة المسيحية .

تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية فى عصرها

أما الحجة الاخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الارباب فى العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر فى ديانات الاقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الاديان المطلعين على أديان المشرق فى لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذى يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاختفال بالميلاد فى يوم الاعتدال الخريفى على حساب الاقدمين ، والاحتفال بيوم الاحد الذى اعتقدوا قديما أنه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم فى اللغات الاوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الام والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء نهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فان التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى أن يقال ان أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك مايفسر تكوينها من المعجزات

والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الالسنة وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الاناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الاصحاح الحادى عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لاول مرة فى مدينة « انطاكية » ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس انه قال محتجا : « أهون بما تقنعنى به أن أصير مسيحيا » وجاء فى الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم ... ان أحدكم لا يتألم لانه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول ، فان تألم لانه مسيحى فلا يخجل »

وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على السنة أعداء المسيحيين ، وليس من الصعب أن يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ، وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لانها طائفة مغضوب عليها فى مراجع الدين ومراجع الدولة، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهى مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الاخبار !

***

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد - علم المقابلة بين الاديان - هى التى دفعت أصحابها فى القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى أمامنا فى هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت ، بل لعلها الى الاثبات أقرب منها الى النفى على الاجمال .

نحن نرى فى هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الاولياء الآخرين ، لانه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك فى وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولى الذى اصطفاه وفضله على غيره من الاولياء .

ونحن نرى فى هذا العصر وفى جميع العصور أن المشهور فى صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة فى كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها فى بابها .

وينبغى أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وأن المسيحيين الاوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ،ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح فى يوم كائنا ما كان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد فى تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد فى السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح أنها اختارت هذا اليوم لتصرف

المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيدا للشمس وتعلن فيه الافراح بانتصار النور على الظلام ، لان الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار .

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لاقناع أتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات أن تيسر فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب بيد Bade فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الاول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبادة الاله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١)

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، اذ أقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات لتاريخية » .

وفى تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لاثنى عشر اماما معروفين بأسمائهم ليس منهم

---

(١) كتاب من الوثنية الى المسيحية فى الدولة الرومانية (الفصل الثانى)
Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية » .

على أن النقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح أنه رمز من رموز العبادات الشمسية لانه يسير الشمس ويقفها عن مسيرها ، ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد أن اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند « نوميديا » بشمال افريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع ابن نون » (١) ... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبى الاسرائيلى ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه .

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا فى اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث فى تاريخ الاديان أن أشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الاولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة . صاحب المصلحة فى هذه الدعوة ؟ وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الخطير على حين فجاة قبل أن ينقضى جيل واحد؟ ولماذا كان يخفى مصادر الشعائر والمراسم الاولى ولا يعلنها الامنسوبة للسيد المسيح ؟

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شميرز Chamber's papers

ان استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخى الاديان من كل ماجمعوه أو فرقوه لينتهوا به الى فرض منقطع النظير .

***

على أن صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الاناجيل ينبئنا فى هذه الناحية عن كثير

فمهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لايمكن ان يقصدها كتاب الاناجيل ، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين

فان روايات الاناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ، وأن تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى الى الشدة والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لاحد لها فى نفوس الاتباع والاشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الاناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم الى معنى تلك الاحوال

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن هذه الاقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية

فالاقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لاتصدر فى نقدهم

عن وجهة نظر الصدوقيين أوالسامريين

وتنتقد أصـــحاب النصوص ولكنها لاتصـــدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لاتدين بآراء الفلاسفة أو الابيقوريين والرواقيين

وتنتقد السامريين ولكنها لاترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والانبياء ولكنها لاتتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولاتقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى ان يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الاعمال الآلية على وتيرة واحدة لايوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولاسيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت

هذه علامات « موضوعية » لها شأنهـــا الاكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت فى ابانهـــا وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكـون الغرابة ان يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رســـولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيـــال دون ذلك التـــوفيق المطبوع

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها انها كتبت بقلم ببليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها الى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله. وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس فى وجهه شية ، غير أنه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس فى فمه ولا أنفه مايعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . مخيف اذا لام أو أنب ، وديع محبب اذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكى ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لايميل الى الاطناب ، وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى أكثر الرجال »

الا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفى اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده ، ومنها مالايعقل ولا يظن به الا أنه مدسوس من اعداء المسيحية فى العصور الاولى ، كقول بعضهم انه كان قميئا أحدب دميم الصورة . فان الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وان يخلو الكلام

المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك فى معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية

نعم ان الانبياء فى بنى اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبى بالدمامة والحدب لا يبقى فى طى الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة

وليس فى الاناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحا أو تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لاول مرة أنه رائع المنظر ملكى الشارة . اذ قال له « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » ... وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية لا تقال للاحدب ولا للدميم المشنوء

غير أننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذى قيل عنه غير مرة أنهم أخذتهم كلماته ، لانه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التى يستند اليها فى حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لان وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس فى المقابلة بين الشطور

وذوق الجمال باد فى شعوره كما هو باد فى تعبيره وتفكيره ،

والتفـــاته الدائم الى الازهار والكروم والجنائن التى يكثر من التشبيه بها فى أمثـاله ، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمـال والاعجاب بمحـاسن الطبيعـة ، وكثـيرا ما كان يرتاد المـروج والحدائق بتلاميذه ويتخـذ من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - منبرا يخطب منـه المستمعين على شـاطئها المعشـوشب كأنما يوقع كلامـه على هزات السفينة وصـفقات الموج وخفقات النسـيم ، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضره كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضى سويعات الضحى والاصيل او سهرات الربيع فى مناجـاة العوالم الابدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء

وقد أطبقت روايات الاناجيل على أنه كان عظيم الاثر فى نفوس النسـاء ، يتبعنه حيث سـار ويصغين اليه فى محبة ووقار ، ومن عظمـاء الرجال من تتعلق بهـم نظرات النسـاء كأنهـن مأسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النسـاء لانهم يلعجون أفئـدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغـرائـز والاهواء ، ولكن الرجل العـظيم الذى يجتذب اليه قلوب النساء لانه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنـان الطهر والقداسـة ويريحهـا من وسـاوس الضعف والفتنـة ، أعظم فى نفوسـهن أثرا من كل عظيم ، وهو الذى من أجـله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون

لهذا لا نستغرب أن يقال أن قرينـة بيلاطس كانت تحـذر قرينها أن يمس ذلك الانسـان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا فى نفوس تبعته وهجرت زينـة الحياة ، ومنهن الغـوانى اللواتى تستـدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع

وقد وصف نفسـه بأنه «وديع متواضـع الفؤاد» وقال ان

الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة فى كثير من أقواله وأفعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

الا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والامهات .. « من هى أمى ومن هم اخوتى ؟ ... من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » ... « من ليس معى فهو على ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .. « وان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته واولاده وأخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذا »

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ، ومهما يكن فيها من اساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لاخلاف عليه أن التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التى يتأدب بها الجنود فى كل ملحمة : جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر فى سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوبا لامثنوية فيه ، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد . وهان موت الجسد

اذا كان موت الروح فى الحسبان، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير فى المخاطرة... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات

وفى انجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه الى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه وفى سائر الاناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر ، وأنه كان يدعو الله ان يجنبه الكأس التى هو وشيك ان يتجرعها ، وأنه كان يقول لتلاميذه : « نفسى جد حزينة ... امكثوا ها هنا واسهروا معى »... وأنه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعانى برحاءه وأشجانه ويقول لهم: ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ؟... ثم قال لهم آخر الامر وقد حم القضاء :الآن ناموا واستريحوا !

فليس الاقدام على الجهاد ان تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وانما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح، وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب فى أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم الى الله . فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون الى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه أو

احتجـــابه ، ويستبشرون تارةلانهم يلمحون معالم الطـريق ، وينحون على أنفسهم باللائمــة تارة لانهم يتهمونهـا بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ،وفيما بين هــــذا القلق تلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبـات والاســتقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان

لا ريب ان هذه الرياضة هي التى عناها كتاب الاناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ســـاعة اخـرى ، ثم تعاف التجربة لانها تسليم بالشك حيث ينبغى التسليم بالثقـــة رسالة الله حقيقة بكل فــداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء، ولكن من لك أيها الضـمير ، انك أنت المختار لرســالة الله ؟ أو تطلب البرهان ؟ فمن أين لك ن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليهـا الانبيــاء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم ، ونحسبه بعـــد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث ارادة الغيب حين تحتجب عنــه هذه الارادة ، فيترك الحـوادث تمضى ويمضى معهـا وينتظر ماتحكم به المقادير ، وفى هـــذه المواقف يخيفه فى أعماق طويته أن يطلب البرهان الالهى لانه لا يريد أن يجرب الهه ، ويخيــفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه الى بيت المقـــدس فى أخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليـل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيـانة الاصـحاب ودسيسة

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه حب الاستلهام والاستطلاع: خير من طلب البرهان وخير من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل فى أمثال تلك المواقف ! ليفعل الله مايشاء، الا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله

فى لحظات كهذه اللحظات يغوص الانسان كله فى أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيها الناظرون اليه : انه غائب عن نفسه ، أو هى التى صمت فيها لا يحير جوابا لانه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب ، أو هى التى أقدم فيها لا يبالى بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟

ان اعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الاساسية فى طبيعة الرسل ، وهى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الايمان غاية ما يبتغونه ، وكثيرا ما يقدمون على جسام الامور لان التسليم أقرب الى الايمان ، ولان الاحجام شك أو انتظار برهان ، والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الاحيان

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل الى الله فى أخريات رسالته قائلا : « اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد »

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك ، أو

أقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه اياها كماأراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة أن السلامة هى مايريده ، وأن النكول هو طريقه الى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره اذن فى غير هذه الطريق، وليكن التسليم هو طريق الايمان

الباب الثاني

الدعوة

تواريخ الاديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التى لامغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعنى بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية فى الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من اطوار الدين او الدنيا الا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من اقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ واتفقت عليها اوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين او من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجر الاشكال والاوضاع فى الدين والاجتماع ، والاخرى سوء العلاقة بين الامم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك الاقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الادنى

تحجرت الاشكال والاوضاع وغلبت المظاهر على كل شىء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل مغانمه

الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج او من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ماتكسب من مظاهر المادة والمال

تجمعت الثروة والكسل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق فى ناحية اخرى . فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والارقاء فى الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا ان تنقش على حجارة وان يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وان تفرغ الكفتان فتستويان لانهما فارغتان !

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، واصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم فى طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل

اشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب

وساءت العلاقة بين الامة والامة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لان الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لاتؤمن بشىء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شىء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على

النصوص والحـــروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل

عقيدة قوامهـــا ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وان ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصـــور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب

هل كانت للدنيا آفة غـــير آفة المظاهر والتناحر على المظاهر؟

وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التى تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهـات لهـــا فى غيره خلاص ؟

وتقطعت الاسباب بين الامم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية فى السائد والمسود والحاكم والمحكوم

الرومانى سيد العالم بحقه ، والاسرائيلى سيد العالم بحـق الهه ، واليـــونانى والاسيوى والمصرى كـــل منهم سيد الامم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذى يجمع عليه بين الذل والالم والجوع ، وأبناء الامة الواحـــدة طوائف طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء

ويأتى الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بنى الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب افضـــل الفضـــائل وافضل الحب حب الاعداء ، وأن الكـــرم أن تعطى من يسألك واكرمه ان تعطى فوق ما تسأل وأن تعطى بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الاموال ، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وان المجد الذى يتنازعه طلابه لا يستحق ان يطلب ، وان المجـــد الذى يستحق ان يطلب لا موضع فيه لنزاع

ولم يأت هذا البشير فضـــولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به فى ذلك الزمن ، وابناء الاقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه ولكنهم

يعرفون ان زمانهم لايطاق ، وان حالهم لابد لها من تحويل
أفلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين – قيصر رومة – فأحرق الاسفار والنبوءات ، ولم يبق منها الا ماهو أقرب الى الفن فى محراب ابولون اله الفنون

أما العبادة التى لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة .. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يمجدها المنكر ، وانما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لاتبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير

وهذه هى دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت اليه ، ولو لم تكن هى طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل ان تنقضى عليها أربعة قرون

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقاومة ... فلا يفهم من هذا انها شاعت فى العالم الانسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذى تعدو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غنى عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الامر عن الدعاة

ولقد تصدى رسول الاخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها اخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لان الذى يدعو الى الاخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الاقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالامر الهين وليس تحطيم سلاح الاقوياء علالة حالم

وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول « جئت لالقى على الارض نارا فحبذا لو تضطرم» • وكان يسأل تلاميذه وسامعيه: « أتحسبونني أتيت لامنح الارض سلاما ؟» ثم يبادر فيقول : «كلا! وانما هو الصدام والانقسام خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الاب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الام على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة »

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بنى اسرائيل كما قال ميخا « مافى الناس من مستقيم • كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك •• لاتأتمنوا صاحبا • لاتثقوا بصديق واوصد فمك عن تلك التى تضطجع فى حضنك ، ان الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على أمها ثائرة ••• والكنة على الحماة ، وللانسان من أهل بيته اعداء

ولكن هذه الاقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الاخاء ، ومن الحرب سعيا الى السلام

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لانه يبسط الدعوة الى الاخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق فى جميع الارجاء

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو اولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعى عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى ان اخرج فأنظره ، •• وقال ذاك : انى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضى لاجربها ••• فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين •• فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا

يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من اولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء»

ويمكن ان يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لايحصى على حسب النظرة التى ينظر بها القارىء الى كلام المسيح فى الاناجيل

يمكن ان يقال انها دعوة الى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العالم كله فى امد قريب ، ويمكن ان يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة ،ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ،فلن يخدم أحد سيدين ...

قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله او قبلة « مامون »(١) اله المادة والمال

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك ..

فالمهم هو الاتجاه اين يكون ،والى اى امد يدوم ، وكل مايلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين !

---

(١) كلمة آرامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسديه ، وتطلق الآن فى اللغات الاوربيه على اله المادة والمال ..

اختيار القبلة

كان الموقف - كما قدمنا - على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده ، فليس فى مقدوره أن يعبد ربين وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والاضداد ، لانها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم

اذا كان الجيل مقبلا على محراب «مامون» بقلبه وقالبه ، فالوجهه الاخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب

ان عباد « مامون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا أنقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس .... وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الايمان ... »

نعم . واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ماهو أفضل وأبقى ... أطلبوا كنوزا لا تنفد فى

سماواتهـــا حيث لا تنـالها يدالسارق ولا يبليها السوس
من استدبر قبلة مامون فهذه هى القبـلة التى يتجـه اليها ، وهذه هى غايتها القصوى ، وان لم تكن هى كل خطوة فى الطريق
وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :
« ما هو بقـادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه واخوته، بل يبغض نفسه
« وما هو بقـادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعنى فى طريقى »
قائل هذا هو القاتل :
« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خـدك الايمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فاعطه ، ومن أخذمافى يدك فلاتطالبه ، وماتريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأى فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم ؟ ان الخطاة ليحبون من يحبهم .. وأى فضل لكم ان أقرضتم من يردون قرضكم ؟ ان الخطاة ليقرضون من يقارضهم.. بل تحبـون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم ... »
وقائل هذا هو القائل :
« ان أخطأ أخوك فوبخه . وان تاب فاغفـر له ، وان أخـطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »
وهذا نقيض ذاك
هذه الرحمة التى تعم الاعداء والاحباب نقيض البغضـاء التى تشمل بها أحب الناس الى الناس: الآباء والامهـات والابناء وذوى الرحم والقربى
انهما تتناقضان غاية التناقض الا على وجه واحد ، وهو توجيه

النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التى تستدبرها

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضى هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضى حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة والتفضيل ، وانما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان

انما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله وتمضى هناك مع مامون

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه

وفى مثل من الامثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فى البرج الشامخ

« من منكم — وهو يريد أن يبنى برجا — لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الاول فى أساس البناء ، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الارض والحجر والبناء

فمن نظر الى الارض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذى تنص

اليه الركاب ، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ماتشعب ، وينتهى اليها ما اعوج أو استقام من الدروب

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الاطفال يأتون الى ولا تمنعوهم ... فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه»

وقال لقوم أيقنوا أنهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب :

« صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسى وعشار ..

« فأما الفريسى فراح يقول في صلاته : حمدا لك يا الهى ! اننى لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم فى اليوم مرتين وأؤدى حق العشر عن كل ماأقتنيه

« وأما العشار فوقف من بعيد لايشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمنى يا الهى أنا الخاطىء ... فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور »

وتكررت هذه الامثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو أنهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد ، وأن يزهد فى يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما فى الغد يوم أولئك الاطفال المرتقب ، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة غريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التى تستقبلها فهنالك تلتقى الشعاب ويحسن المآب .

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل اكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية . لانها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم

كان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لايحابى ولا يتردد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى ان يلقى بها حطبا فى الاتون

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات

وفى انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الاب والام جاء فيه ان زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتا لايتكلم ، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى أنه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرته رجفة فقال له الملك : لا تخف يازكريا . ان الله قد أجاب سؤلك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لانه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدسى ويرد بنى اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح يليا (الياس) وقوته .. »

وقد ذكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال رب اجعل لى

آية قال آيتك الا تكلم النـاس ثلاثة ايام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار»

وذكرت فى سورة مريم : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيـا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى مـن لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا • يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا • قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هـين وقد خلقتك من قبـل ولم تك شيئا • قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكـرة وعشيا ، يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيـا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا »

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فى القـرآن الكريم بالحصور ، وكان عليمـا بالكتب الدينية ، يسمعهـا من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهـر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم اكثر الايام ويقتات من الجـراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعـدوا • قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة لاتأتى بثمر جيد تقطع وتلقى فى النار : صـوت صارخ فى البرية كما قال الانبياء الاقدمون

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة او دنس ، فراح

ينحى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لانه تزوج من هيرودية اخته وزوجها لايزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله .

وفى سهرة من سهرات اللهو التى تعود هيرود ان يحييها فى قصره ، رقصت بنت اخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ماكان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، واصرت على طلبها فأعطاها ماسألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لان يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل ان يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لاينتسبون اليهم ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم « يا أولاد الافاعى .. لايهجسن باخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم ... انى اقول لكم ان الله قادر ان يخرج من هذه الحجارة ابناء لابراهيم »

وكانت هذه اول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته ان يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث ان اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لاتضلها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الادعياء ان

يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون ان يحرجوا السيد المسيح بالاسئلة والمعميات ردعليهم حرجهم وقال لهم :اجيبونى (اولا) هل كانت رسالة يوحنامن السماء أم من الناس ؟ فلم يستطيعوا جوابا لانهماذا اعترفوا برسالته اتهموا انفسهم واذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين

وليس أدل على مكانة يوحنامن ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ،وهو شديد الحذر من اغضاب ذوى الرأى والسلطان ، فقد قال عنه : « انه كان انساناصالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وان يتقوا الله » ٠ وهذه شهادة من المؤرخ يرددبها شهادةقومه ، وهى شهادةللرسول وشهادة على انفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت فى قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل

***

والسيد المسيح طبيعة اخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ،فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس. بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والاعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لانهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا ان تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا هذا السرف ؟ لقد كان احرى بهذا الطيب ان يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام « مابالكم تزعجون المرأة ؟ انها احسنت بى عملا ٠ وان الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم فى كل حين »

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان اكول شريب محب للعشارين والخطاة »

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن اعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الابية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها ان تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون

الشريعة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى او جانب البحث الاقتصادى او جانب البحث الاجتماعى ، أو الدينى، أو الثقافى الى نتيجة واحدة : وهى ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الاثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ،فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذى بعده دون ان يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لانه معلق فى جميع احواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الاجوف وولعها بالرياء

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها فى تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف

انما تلزم الرسالة فى امثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه

والآداب الانسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ،وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ويشعر بتلك الحاجة العظمى

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين

ويوشك مع الظلم ان يكون كل متهم مظلوما ، لان الجريمة كلها فى جانب الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم اولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ

وقد كان المتهمون هم اولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ فى احضان الدعوة الجديدة :احضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين فى سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا الى ياجميع المتعبين والمثقلين ... احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى ... فتجدوا راحة لنفوسكم . لان نيرى هين وحملى خفيف »

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لايعلمون انهم جائعون ، والاغنياء الذين لايعلمون انهم معوزون ، والمتجبرين الذين لايعلمون انهم مساكين، والمتكبرين الذين لايعلمون انهم منكسرون

***

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء، وعلى قدر مايحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الاصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ،وان الامل فى التوبة على قدر الكرم فى المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما مايوفيان ، فأجزلهما شكرا من سومح فى الدين الكبير »

وكانت ضحية الضحايا فى ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على الوانها : فتنة الغواية

وفتنة الفاقة وفتنة الاسرة المنحلة وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة ... والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة فى كل زمان

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة احقابا بعد احقاب، وأطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاما فوق آكام - فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الامل فى رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسى، مالم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عاليه : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبى ويجهل انها امرأة خاطئة ،فقال: «أتنظر الى هذه المرأة ! انى دخلت بيتك فلم يكن لقدمى فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحنى قبلة وهى منذ دخلت لاتكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن رأسى بزيت ، وهى قد دهنت رجلى بالطيب ... ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه .. »

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالى الابواب التى فتحت للنقمة والعقاب

***

منذ الخطوة الاولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير

برسالته أخذ على نفسه ان يعتزل « السلطة » ويتنحى لهـــا عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بابطال او بانفاذ : لايبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر ان يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فانه ـ كما تقدم ـ قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والاوامر والنواهى والحـــكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيـــكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وابنـــائه واذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لايساوى جهد الحـــرب التى تشنها طائفة ضعيفة عـــلى دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهـــودية التى تشايع الدولتين وتعمـــل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه ، ان تأتى ، وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الاخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميـــدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما اقبلت عليه الجموع حتى احست السلطة ـ سلطة الدين قبل كل شىء ـ بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبـــوب خطر على سلطة التقاليد والجمود جاءوه فى ميدانه بعد ان ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتبـــاك الذى لابد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عـــن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران

كان التبشير بالغفران والتوبة اكبر ذنوب الداعى الجديد ، لان

الخطايا والعقوبات بضـــاعة السلطان القائم ، وهى على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخـــر والكبرياء

فجاءوا يسوقونه الى حيث ابى ان يساق ، وكان همهم الاكبر ان يثبتوا عليه انه يبطل شريعـــةأو يتصدى لتنفيذ ذريعة، فاعنتوا عقولهم فى البحث عن المشكلات والالغاز التى يفتى فيهـــا بما يخـــالف الشريعة الدينية اوالقوانين السياسية، أو يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : ايها المعلم ! مر اخى يقـاسمنى الميراث ٠٠٠وظن انه يتوَلى هنا سلطـــــة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : ايها الانسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو حسيبا ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل ان يضطروه الى موقف الحكم اوانكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبـــة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقـــة ،وراحوا يتصايحون : ايها المعلم . هذه امرأة أخذت وهى تزنى، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول انت ؟

ماذا يقول هو ؟ما بالهم يسألونه ويســتأذنونه وهـــو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها؟.. ان الشرك مكشوف على وجه الارض . وليس منه مخرج فيما حسـبوا وخمنوا ... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه،وان قال اطلقوها فتلك شريعـــة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك، ولو أنه مكشوف معروف

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهى من القضية الى حـــل لايدعى به السلطة ولا ينكـرها ،ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ،ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج

من المأزق الذى دفعوه اليه ،وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الارض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر »

لاينقض شريعة موسى ولايدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ ... فقالت : لا أحد أيها السيد . فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبى ولا تخطئى

نعم . لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لان القاضى لايدين بغير شكوى، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدع الاسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال أن الزوج والزوجة جسد واحد لايفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنا دفعها الى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فانه زان »

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا

والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء . فلما قيل له أن شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة ، وسألوه : لمن تؤول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة؟ خيل اليهم أنه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ، لان الاحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون !

والحق أن الاناجيل لا تروى لنا من هذه المساجلات الا مانشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيهقون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والاجوبة المسكتة لهى دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لانها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهان الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع اذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس

فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التى ترتفع الى الاكمل فالاكمل وتنفذ الى المعانى من وراء الالفاظ ، ويرجع الامر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل عينا أو يدخل فى الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل .

شريعة الحبّ

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر ـ فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والالغاز منها ، وينتهى الامر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الاحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الاحكام والعقوبات

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتنانا منهم فى عصر العبارات ونبش الدفائن واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى، وانما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقدح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها ان تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة ... وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها!

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشـــارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد تنتفخ الاوداج بهذا الفخر علانية ، ويصـبح أحق النـاس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين

ويتمادى الامر حتى تصبح الاستقامة براعة فى اللعب بالالفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى، وحتى يزول الجوهر فى سبيـل العرض ، ويزول اللبـــاب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهـــارة الضمير فى سـبيل الكلمـات والنصـوص ، وتزول الحقـــائق فى سبيـــل الظواهر والاشكال

واذا صار أمر الفضـائل الى الظواهر والاشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنـه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حيـاة ولا اعتبـــار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والاحكام ووراء الاوامر والنواهى ، ووراء العقاب والاحتيال

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود واشكال

وعالم طلق من القيود والاشكال ، فى ساحة الضمير

روى انجيل متى فى الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال:

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الانبياء · ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل »

وروت الاناجيل أنه عمل فى يوم السبت وسخر من المحرمات التى لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس

فهل نقض المسيح من تقدموه او اتبعهم فى كل ما أبرموه ؟

ان شئت فقل انه نقض كل شىء

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة

لانه نقض شريعة الاشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الاشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه

وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الاذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شىء ، وناموس العقيدة هو الاصول الابدية التى يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائما ـ كما قال السيد المسيح ـ ما قامت الارض والسماوات

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لانه جاء بشريعة الحب ، وهى زيادة عليه

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الامر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء

بهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ ، نقض المسيح كل حرف فى شريعة الاشكال والظواهر

وبهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له أساسا يستقر فى الاعماق

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب

وفى اعتقادنا ان « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الادبى بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : « لماذا تنظر الى القذى فى عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة فى عينك ؟! »

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الاعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر ..! »

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلى بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيا ينم عليه بعبوسه وضجره ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لانهم يحبون أن يصلوا قائمين

فى المجامع وفى زوايا الشوارع.. ومتى صمتم انتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا جرلهم ، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغساوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لابيكم المطلع ى الصدور »

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطى بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالابواق ويعلن صدقته فى الطرقات والاسواق، ويلزم فى شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين

فى شريعة الكبرياء يتقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لانه يجلس مع العشارين والخطاة وفى شريعة ب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى أن يقال لهم : انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة « الظواهر والاشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقدار ما يتلى عليها من الاوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الايدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران »

***

ومجمل القول ان الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والاشكال ،

شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة «امتياز رسمى» يحتكره اصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الامر فيه الى الموروثات والمأثورات

فالفضل بين الامم « امتيازرسمى » محتكر لاسرائيل لانهم ابناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لابناء هرون وأبناء لاوى اصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار ان تكون «وثيقة فى صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لانكم اكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ، بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم »

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة «بل الذى يعمل بمشيئة الله هو أخى وأختى وأمى » .. « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على ارائك الملكوت ، وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء »

وانما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة .. وضرب لهم مثلا : انسانا « خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه ... ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه

ويعنى به ومهما ينفق عليه فهوموفيه عند مرجعه » ... قال السيد المسيح لتلاميذه وقدضرب لهم هذا المثل : « أى هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة أن السامرى المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين !

وراح يجبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجى الشريعة ، فقال لهم « ان الدين بما تعمل لا بما تعلم » ... وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم فى عملهم وان يدعوا مثل دعواهم : « لانهم يحزمون الاوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم ؟ يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الاول فى الولائم والمجالس الاولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الاسواق وأن يقال لهم : سيدى سيدى حيث يذهبون ... »

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل ... أنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة ..... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون — انكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة »

ولما تعالموا عليه بالاسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه أيهما أعظم فى الناموس ؟ حسبوا أنه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الاسرار والالغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا فى كلمات معدودات : « أن تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك »

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والاوراق، ولا تكون العقبى انه يهدر الفرائض والاحكام وانه يستبيح ما لا يباح، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنعه فى سبيل الواجب، وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير، ولايصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والاشكال، لان الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع، ولانه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما نا فأقول لكم أن من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى ... فأن قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك، فدع قربانك أمام المذبح واذهب قبل فصالح أخاك.

« وقيل للقدماء لا تزن. أما أنا فأقول لكم أن من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فأقلعها وألقها عنك فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك ...

« وقيل للقدماء لا تحنث .. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا... وليكن كلامكم كله نعم نعم. لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان ...

« وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر

.. ومن سخرك ميلا واحـــدا فأذهب معه ميلين ...

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عـــدوك . وأما أنا فأقول لكم احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا الى مبغضيكم . وادعوا لمن يسيء اليكم ويطردكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات ، فانه يطلع شمســه على الاشرار والصالحين ويرسل غيثه للابرار والظالمين . وأي اجر لكم ان أحببتكم من يحبونكم . أليس العشـــارون يفعلون ذلك ؟ وأي فضل تصنعون ان خصصتم أخوتكم بالسلام ؟ أليس العشارون يفعلون ذلك ! فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل .. يحب الكمال .. »

هـــذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركـــانه ، وقـــد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منهـــاحين تنقلها من الاوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لان الانسان يحاسب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذى تمليه شريعة الحب والضـــمير وشريعة الظواهر والاشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمـــة كانت منظـــورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود فى وجهته أو جزافا يقوله كل قائل ويأتى لغير مناسبة ، ومن ثم نقول أن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شـــاء ، لانه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعـــة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملى عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم فى مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فكل ماوافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والاشكال فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظواهر والاشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح الا على عباد الالفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الالفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شيء الى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .

آداب حیاة

كان « أوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ؛ ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم أساتذته الاولون

هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح أن أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لاقوال السيد المسيح

الا ان ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الاول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه اذا علم أنها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب فى ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية

لكن «أوريجين» نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الاعضاء عن نزغات الجسد ، فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان كلمنت الاسكندرى يقول بحق أن السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال أن نرفضه

بتاتا فى جميع الاحوال ، والا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى ان الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى أقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور «شويتزر» Schweitzer الذى يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وأن الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفى اعتقادنا أنه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة فى عصر السيد المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الاخرى ، ونظام فرق الفداء فى الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة .

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل : الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لانفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟

اقول حقا اننى أفهم وصاياالسيد المسيح جميعا ولا أجد فى فهمها صعوبة على الاطلاق اذاأنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليهالسلام ، واذا علمنا أنه عليه السلام قد قال كل شىء حين قال ولخص حكمته كلها فى هذا المقال : « ليس الانسان للسبت،وانما السبت للانسان » .

لقد كان هم السيد المسيح فىالاصلاح النفسى تغيير البواعث لا تغيير المقادير .

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للابعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هى المحورالذى تدور عليه حياة الامم والآحاد فى عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

كانت « الاشياء » مقدمة علىالنفس الانسانية ، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمةعلى الاشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لان من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

واذا كان «الحطام» هو محورالحياة فسيان الكثير والقليل : سيان من يطلب الدرهم الواحدومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم

اذا كانت « الشهوة » هىمحور الحياة فسيان من يشتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهروينام فى طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذىيدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقلالقبلة كما أسلفنا فى فصل سابق ، فينتقل كل شىء ويتغيراللباب الاصيل من كل خلق .

اذا أصبح كسب النفس الانسانية ــ كسب المحور ــ هو

غاية الحياة فالذى يملك الملايين زاهد كالذى يملك العشرات أو الذى لا يملك شيئا من الاشياء .

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

واذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .

وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الانسانية .

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو أنه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذى يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير فى زمانه : غيره حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الاعراس ويضرب المثل لاتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح .

وما كان الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات : أنت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الاوقات ، فتهالك عليها أياما في الاسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع

كلا . لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات ، وانما كان على الدوام مسألة «محور» ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذى انحرفت عنه أو الى محور جديد .

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك مايقول وهو يقول: « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء » .

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . ما كان يفوته ذلك ولاريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هي المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الامثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ،لان من يعطى مجبرا أو يعطى مالا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولايملك نفسه .

وليس كذلك من يعطى لانه يريد العطاء : انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لان غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس

بما يأخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور .

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع فى مكان مجتمع ، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الامة ، وأقامها على أساس واضح فى وصايا متعددة لا تضارب بينها

فالجسم أفضل من الطعام واللباس .

والانسان أفضل من السبت .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم .

ومملكة الضمير فى قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها فى كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكى تفهم ،

وعندها فى كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الامر عن بواطن الامور . وهذه الحذلقة هى التى حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبى ولا الحكيم .

ان الحذلقة هى التى أبت أن تفهم حين قال القائل: ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره... أفليس فى هذا الكلام شىء يفهمه السامع ؟ بلى . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هى التى قالت فى جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور .

ان الحذلقة تقول هذا لانها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا بحين خسرت العمل ؟. كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير، ولكنهما يستويان على الاقل ، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين .. !

كذلك يقول السيد المسيح :من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق لطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما فى حوزته ؟

أفليس فى قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد الا ظهورا «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد فى الامر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به فى الاحسان،وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ،وانما الخلاف الذى يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والايثار .

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء

والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة فى قياس المسافات ولا تقدير المقادير

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفى حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد .

ملكوت السموات

« انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

(قرآن كريم)

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولاسيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التى تنتهى اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ماقصدوا اليه ، ثم يمضى الزمن وتنطوى المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير فى عنان الحكمة الابدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير ، والى أين يسيرون .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية ، فلو انها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذى كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات فى صدر الاسلام .

وماذا لو أن بنى اسرائيل فى عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر أن نبيا من الانبياء يضاف اسمه الى أسماء الانبياء فى كتاب العهد القديم ، وتبقى اسرائيل فى عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ : منسية لاتذكر ، أو تذكر كما

تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين .

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الاولى ، ومن البديه أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لانهم عشيرته الاقربون ، ولانهم أصحاب الكتب التى تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لانهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الامم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلى تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه فى الخطاب كان ينتهر المرأة الفينيقية التى أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب ، لانه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديهيا كما قلنا من وحى الفطرة ووحى الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التى يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الاقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصى الاقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدنى اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة فى نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شىء فى غير ذلك النطاق المحدود .

وان لم يستجيبوا جميعا ،واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الامر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ،بل قد حدث فعلا أن فئة من بنى اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الابيونية » أى طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى الى اليمين ولا الى اليسار ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الاردن ،واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرم الاقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة ، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الابيونيون .

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذى أولم الولائم ،وأرسل الى الصفوة المختارين من الاقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ،وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى مابعد يوم الوليمة ، فأقسم لايحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الازقة أو تقذف به الطريق ، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ،وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون اليها ، ويتقدم اليها من هم أحق بها ، لانهم يشتهون مايعافه المدعوون المتبطرون .

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف فى دعواهم فأنكروه وألحفوا فى انكاره : « ان الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس الزاوية .. ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لامة تؤتيه ثماره ..

من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه.. هناك يكون البكاء وصرير الانسان ، هناك يدعى الكثيرون ولا ينتخب الا القليلون »

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التى يخص بها « الامة » ويفردها بين الامم ، وكثرت فى وصاياه الآداب الانسانية التى يستحق بها الانسان ملكوت السماوات، فردا فردا كائنا ماكان شأن الامة التى ينتمى اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بنى الانسان أجمعين .

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الاناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الاناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الاناجيل باسم ملكوت ابن الانسان .

كذلك يبدو من بعض الاقوال انه حاضر على الابواب ، وان من الاحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا فى ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى ان المدى بعيد وان الضلال فى دعواه طويل الامد « لا يضلنكم أحد . فان كثيرين سيأتون باسمى فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ، لا يحين الحين بعد .. بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الاوجاع ، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الامم فى سبيلى .. ثم يأتى أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون ، وينادى

ببشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الامم »
(٢٤ متى)

وأحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد: « اسهروا اذن لانكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم .. ولو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق ما سرق .. فاستعدوا أنتم كذلك . لانه فى ساعة لاتخطر لكم يأتى ابن الانسان » .

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل .

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره » ٦ متى « وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » ١٣ متى .

وأحيانا يطلق على الرسالة التى يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتا كما جعل لى أبى ، ويقول لوقا ان التلاميذ والاتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال » ١٩ لوقا .

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شىء الى البداهة وطبائع الامور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذى يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر ، وانه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التى جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الالف الرابعة أو

نهاية الالف السادسة ، واختلفوا هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهى العالم الارضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الارضى المعهود .

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد . بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذير ، سواء ظهر فى ذلك الوقت أو ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الانظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى فى تقديرنا فليكن فى الحساب انه باب من ابواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الاخرى، ولا سيما الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة ، كما هو الواقع فى جميع الرسالات

ففى رسالات الانبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيستحقون بها الملكوت فى العالم الآخر .

هذا الملكوت ايضا - ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان - يقع فى البال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لاتباعه مطالبه ووصاياه.

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذى يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة، وتوجيهه حينا الى الملكوت بعد القيامة .

أما اللبس فى فهم الملكوت الذى يدور على الرسالة المسيحية -أو رسالة ابن الانسان -فمرجع من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها .فالملكوت فى الدعوة التى يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت فى الدعوة التى لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعم الامم أجمعين .

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس اذا دعى السامعون الى رسالة سمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه ٠

ولا نرى ان المسافة الشاسعه بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والاتباع قدبرزت فى موضع من المواضع بروزها فى الاسئلة التى توالت منهم عليه وفى الحيرة التى دلت عليها هذه الاسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الاعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوه ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتى بدولة بنى اسرائيل : «فسألوه قائلين: يارب ! هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ فقال لهم :ليس لكم أن تعرفوا الازمنة والاوقات التى أودعها الاب سلطانه ٠٠ لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ،وستكونون شهداء لى فى أورشليم وفى اليهودية جميعا ، وفى السامرة ، والى أقصى المسكونة ٠

ونعود فنقول ان اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ ان يخلقوه ويصوروه ، وكل مافى استطاعتهم ان يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الالفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة ، وانها هى الوصف المقصود

والاناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الانسان فى كل زمان، اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لايجديه ، وذكرت مملكة لايدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لايفتحها السيف لأنه مابالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله؟ أجابهم : انه لايأتى بمراقبة . ولايقول قائل هوذا هاهنا وهوذا هناك ، لأنه هو الآن فى داخلكم» (١٧ لوقا)

فالذين استغربوا الاوصاف ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك ! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى أذهان السامعين بمعنى القيامة وروده أحيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ بل كيف كانوا ينتظرون ان تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لابد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم ؟

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لايعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى ان الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص

اذا جاءنا رجل لايعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا ان نخرج من تلك الخطوط والاشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذى يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ،

أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه

***

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن أمة واحدة الى سائر الامم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان

وحدث هذا التحول والعالم الانسانى متهيىء للدعوة الجديدة من اعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها

والعالم الانسانى يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شىء من قبيلها

مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الاغوار

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الامم والاقوام ، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الارض ولم توجد فى سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الاخوة والصفاء

بل تحطمت أسوار الامم والاقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الاخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لاناس من جميع العصب والسلالات ، لايشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما فى ربقة الرق الصراح أو فى ربقة أخرى لاتقل عنها فى القسوة والنقمة ، وهى ربقة الحرمان والقنوط

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول يجمع الاقوام الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل مايحدث فى الاديان الوثنية أن تتغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانيها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك مايروقها أن تعبده من الارباب والاصنام

أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الانسانى فلم تعهد قط فى غير الاديان الكتابية أو الاديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بالله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول فى تلك الفترة

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته فى ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التى يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير

وتم على يد هذا الرسول نقيض مايتم على أيدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة ـ رسالة الملكوت السماوى ـ فقد نشأت فى عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال

معـدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ماورووه عن جوليان ـ سواء قاله أو لم يقله ـ فانتصر «الجليلى» بملكوته السماوى عـلى ممالك القياصر ، وضم القيـاصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ماأخذوه باسم قيصر وماأخذوه باسم الله!

الباب الثالث
أدوات الدعوة

فترة المعلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة فى العالم ثبت من انتشارها شيئان على الاقل ، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجا اليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران فى معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء ، وقد يتفقان فى وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل

وجملة مايفهم من العصور التمهيدية التى لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم فى عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده فى تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا «سلبيا» بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته فى بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالابيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث فى شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التى تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الابيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم مايقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة انه لايملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها .

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما

فى ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقاً أن يظفر بتلك العقيدة عفواً صفواً بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية فى أولئك الرسل والدعاة

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح ، وأولها قدرة الداعى على كسب النفوس واجتذاب الاسماع والغلبة على مايقاومه من المكابرة والعناد

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحق سمى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحى حيوى من طريق التعليم

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الاناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون فى كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة فى الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفى ما بين أيدينا من الاناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والاحكام

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لايفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج الى بيت المقدس فى الاعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى الاسكندريه وبلاد الاغريق ولايتفاهمون بغير اليونانية مع

أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة فى معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التى تدرس بها كتب موسى والانبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التى كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التى جاءت فى الاناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامى بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الالفاظ

على ان هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود فى تلك الآونة ، فربما كان فى بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ماحفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذى يبث الحياة الروحانية فى النفوس وينفث فى الخواطر تلك الراحة التى تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الانغام التى كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ

لقد كانت اللغة التى حملت بشائر الدعوة الاولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة فى القوة والنفاذ

كانت لغة فذة فى تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة فى بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة فى طابعها الذى لايشبهه طابع آخر فى الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الاذهان والقلوب

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لايشبه نظم الاعاريض والتفعيلات

التى نعرفها فى اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف فى اللغة الآرامية ولافى اللغة العبرية . ولكنه أشبه مايكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية، وان كانت لاتتكرر بلفظها المعاد

كان أسلوبه فى ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير، وليس فى الترجمة العربية مايدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« أسألوا تعطوا

« أطلبوا تجدوا

« أقرعوا يفتح لكم

« لان من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله أبنه خبزا فيعطيه حجرا

« أو يسأله سمكة فيعطيه حية .

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا .

« فأذا كنتم ـ وأنتم أشرار ـ تحسنون العطاء للابناء، فكيف بالاب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون »

أو كما فى هذا المثال :

« كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الانسان

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، الى اليوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع

« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيه لوط من سدرم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع

« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الانسان

« فى ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته فى البيت فلا يهبط اليها ليأخذها

« ومن كان فى الحقل فلا يرجع الى الوراء . ألا تذكرون أمرأة لوط ؟

« من طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها

« أقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون أثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه .

« وتكون أثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الاخرى

« ويكون أثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك

« .... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور »

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لاورشليم

« يا أورشليم . ياأورشليم !

« يا قاتلة الانبياء ، وراجمة المرسلين

« كم مرة أردت أن أجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها

« ولم تريدوا

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب »

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات أورشليم !

« لاتبكين على ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام ان تكون غطاء لهم

« أن كان يالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ما ذا يصنعون ؟ »

***

هذى النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الامثال فى كل قالب من قوالب الامثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقالب الذى يعول على الحكمة ، والقالب الذى يعول على القياس ، والقالب الذى يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذى انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وان كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الامثال

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذور . « زارع خرج ليزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر حفيف التربة فنبتت على الاثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق فى جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الارض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له أذنان للسمع فليسمع »

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . اما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، وأما الفطنات فأخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا ، ثم علت

الصيحة عند منتصف الليل :هاهو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه ، فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لايكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع . وفيماهن ذاهبات قدم العريس ... وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين : أفتح لنا ياسيد ... أفتح لنا ياسيد . فأجابهن من أنتن ؟ أنى لا أعرفكن ! »

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة .. من يقبل على لايجوع »

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » ... « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » .. « أيها المداوى داو نفسك » .. « خمر جديدة فى زقاق قديمة » ... « لاتدع يسارك تعلم بماتصنع يمينك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لاكرامة لنبى فى وطنه »

ومن نماذج المثل الذى يعول على القياس . « أن كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ أليس ذلك شأن العشارين ؟ »

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالاصحاء الى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون الى الاطباء »، ومنه : « أن كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون ! »

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه « أنتم ملح الارض ، فأن فسد الملح فبماذا يصلح ؟ أنه لايصلح اذن الا لان يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار »

ومن نماذجه : « لاتكنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد

السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص. وحيث يكون الكنز يكون القلب.

وقد أثر عن السيد المسيح فى جميع الامثال حب المقابلة بين الاضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة: « يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشية فى أعينهم » ... « يحاسبون على البعوضة، ويبلعون الجمل » .. « فى الظاهر جدران مبيضة وفى الباطن عظام نخرة » ... « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط ».

ومعظم هذه الامثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر، جوابا على سؤال، او تعقيبا على حادث عارض، أو تقريعا لمكابر، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التى توحيها، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الامثلة المتوالية فى المقاصد المختلفة لم تصدر عنه فى سياق واحد أو جلسة واحدة، وأن الخطبة على الجبل - وهى أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات - جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات فى أوقاتها ومناسباتها.

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعانى المنسوقة فى البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غير هذه الاحوال، فتجرى كلماته فى مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لانه منتظم غير مرسل، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وأنه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير فى بواطن قريحته

غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودوا التفكير، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم أنهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك أن يتساءلوا : أين ياترى سمعوه قبل الآن ؟ والواقع أنهم نقلوه من وعيهم الخفى الى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحد : غريبا لانه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريبا لانهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك .

***

ومن كان كالسيد المسيح تربى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الانبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة، والامثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحى والايحاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الاسماع بهاتف الصحف الاولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته ، وهذه هى البديهة التى كان يعنيها حين يوصى تلاميذه بالاعتماد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق، والتنميق قبل الساعة التى تدعوهم دواعيها للخطاب

ولعل سامعى العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الامثال فى قوالبها مرات كثيرة ، ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو أستمعوا الى خطيب فى غير المعابد ، فأن نقاد البيان العبرى والآرامى يردون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعها

للامثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الامر المحقق أن سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الاريحية التى كانت تشيع فى أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذى كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة فى أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور .

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه أنه يتعدمن مصدره كلما أصغى اليه ، ومنه مايجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لايدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الاشياء وتتبين الفوارق بين الاضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الاعمى الذى يسترد بصره مشدوها بالرؤية لاول مرة ، أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء ولا أقتحام

فى وسعنا أن نتخيل اولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة

وفى وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا

رسالة فى الحق بغير رسول ، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح ، فأن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها : وهو الاصل الاصيل فى قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيادات .

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هداية أنسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والافهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الاولى بالسبق فى الميدان لانه صاحب السبق فى الدعوة وصاحب السبق فى الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح .. وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها ... والصالح لاقامتها ، لان صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه .

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الاول فى كل دعوة انهم دعاة ، اى انهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة

أما الفضل الاول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا فى الواقع هم الصف الاول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف اخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولا بد ان نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدى بتلك الامة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم وهم الصف الاول فى الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى اليه

كانوا نموذج الامة المسيحية فى أول الرسالة ، ومضى على الامة المسيحية عدة اجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على اناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا وراء رعيل

ان الدعوات قادة ومقودون

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم . بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين وآخرين

وليس فى سيرتهم الاولى ما يفهم منه انهم مميزون بصفة القيادة

فهم جميعا من بيئة واحـــدة .وربما كانوا جميعا من ســلالة متقاربة او بيوت متجـــاورة ،كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتمـــــاثلين ، ثم امتازوا بعـــــد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى الســـيدالمسيح

وكان السيد المسيح ينظـرالى بعضهم فيقول له : اتبعنى . فيتبعه ولا يظهر عليه انه افضل من غيره بمزية عقلية او نفسية الا ان تكون المزية التى يتوسمهافيه السيد فيدعوه من أجلها ؛ وهى مزية الاصغاء والاتباع

ولم يبد منهم انهم اقدر عـلىفهمه من الآخرين ، فلواصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوافى مثل قدرتهم عـــلى التعلم واستعدادهم للقبـــول ، لان كفاءتهم ولا شك هى الكفـــاءة الوسطى فى كل طائفة بهـــذاالعدد ومن هذه البيئة ، فلم يكن منهم علم بارز لايتكرر بهـــذهالنسبة فى أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الاولى ، فلا يقـالفى واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من الف لايتكرر ، او انواحدا منهم تعلم مالا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل مايقال انه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب

وقد وقع عليهم الاختيار كمـــاجاء فى الاناجيل

ولكن لايبدو من ذلك الاختيارانه كان اختيارانادرا اومستعصيا على القائد الحـــكيم الحصيف ،ولعل العامل الاكبر فيه انهـــم مختارون من طائفة متعـــارفةمتآلفة ، وان اجتماعهم هـــكذا خير واصلح من اجتماعهم بدوامن بيئات متباعدة ، فان المتــآلفين اولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين

ونحسب ان التشبيه بالتجنيدهنا خليق ان يقرب الى الاذهان

هذا المعنى الذى نرى له المكان الاول فى فهم الدعوة واسباب سريانها

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الاخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثتها فيهم روح المعلم القدير

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لايغالطون انفسهم فى تلك العيوب :

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه ان يزيدهم ايمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون امثال هذه الشكوك

ولم يحسب قط انهم طود لايتزعزع وأنهم عزيمة لاتتضعضع وانهم يواجهون المحنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما امام هول من الاهوال

فقد انبأهم انهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم ان يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لانهم يتنافسون على السبق أو لانهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لانهم - بعد وعظهم وتذكيرهم - لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم اكثر مما نظر ، او تفوته منهم فى أوائلهم حالة ظهرت له فى أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية : علم انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم

الواسع ان يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد ادركه التلاميذ يوم وكل اليهم ان يسبحوا فى ارض الله ويجعلوا من انفسهم مثلا يقتدى به المخلصون

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لاعيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا انفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوه

***

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الانجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره فى القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ فمنهم من يقول انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول انه اليأس ، ومنهم من يقول أنه نبى مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : وانتم من تقولون انى انا هو ؟ فأجابه بطرس : انت المسيح . فانتهره واوصاهم الا يذكروا ذلك لاحد فى رواية انجيل مرقس . اما فى انجيل متى فقد روى ان بطرس قال : « انت هو المسيح بن الله الحى » فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان ابن يونا . أن مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه ابى الذى فى السماوات ، وانا اقول لك ، انك انت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما فى العربيه وبطرس « بيتر » هى ترجمة الكلمة باليونانية

مفاتيح السماوات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ماتحله على الارض يكون محلولا فى السماوات ثم اوصى تلاميذه الا يقولوا لاحدانه هو يسوع المسيح »

أما فى انجيل لوقا فالرواية اقرب الى رواية انجيل مرقس : « ففيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا ماذا تقول الجموع عنى ؟ فأجابوا انهم يقولون يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون الياس وآخرون يقولون ان نبيا من القدماء قام . ثم سألهم : وانتم من تقولون ؟ فقال بطرس : مسيح الله . فانتهرهم وأوصاهم الا يقولوا ذلك لاحد »

والرواية فى يوحنا أقرب الى تصوير ماقدمناه ، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه « وان كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : العلكم انتم تريدون ايضا ان تذهبوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يارب ! الى أين نذهب؟ كلام الحياة الابدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحى . فأجابهم :الست أنا اخترتكم ... وواحد منكم شيطان ! »

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم فى كلامى كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لاحد فكيف تقول أنكم ستصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق اقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا .انما يبقى فيه الابن الى الابد . فان حرركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحرارا .. أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم . لكنكم تريدون قتلى لان كلامى لا يقع منكم موقعا .

انا اتكلم بما رأيت عند ابي وانتم تعلمون ما رأيتم عند ابيكم ، فأجابوه : ان ابانا ابراهيم . قال : لو كان اباكم لعملتم عمله ولكنكم الآن تطلبون دمي وانا انسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وانتم تعملون اعمال ابيكم . فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح لنا اب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لانني خرجت من قبل الله واتيت اليكم . انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني ... انتم من اب هو ابليس ... »

فأجابه اليهود : « لحسن تقول انك سامري بك شيطان . وبعد ان قال لهم : ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت عادوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شيطانا . قد مات ابراهيم وانت تقول : ان حفظ احد كلامي لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ العلك اعظم من ابينا ابراهيم الذي مات »

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى في دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود ، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح ولغة المجاز ، وانه اشفق يوما ان ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا ان يحسبوا انفسهم من التلاميذ وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : انما بنوة الله بالاعمال وانما انتم بأعمالكم ابناء ابليس !!

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الابد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية التي صمد معه اناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون

الامل فى الخلاص من هـذا الطريق ، فاولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الدين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضو عليه .

***

والشائع ان التلاميد كانوا طائفه من صيادى السمك فى بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند ناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم فى طبقه عمال الصيد الاميين ، ولكنه فهم متعجل مبنى على قياس غير صائب . ذا الواقع أنهم كانوا طائفة تقر وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ماقيل عن النبوءات ، لم يبلغوا فى العلم مبلغ الفقهاء فى زمانهم ، وهو خير لانهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدى والمكابرة ، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الامية الجاهلة فى الغباء ، وكان منهم من نسميه فى عصرنا هذا بكاتب الحسابات او مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الارجح » قدرة لاتتأتى لغير المثقفين ومنهم يوحنا الذى ينسب اليه الانجيل الرابع ،وهو ابن خالة المسيح أو من بنى خؤولته، وكان صاحب عمل ناجح فى تجارة السمك يشاركه فيه اخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول : أنهما تركا أباهما فى السفينة مع الاجراء وذهبا وراء السيد المسيح

ومنهم جيمس قريب المسيح ويوحنا و « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته فى الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض اخبار الانجيل ،وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، واكثرهم واجه الموت فى

عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان

وقد استمالت الدعوة اليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الاعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو استاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، واكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لانهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره اولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية في تقويضه او الاجهاز عليه

***

ومن المعاصرين من يحلو له ان يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام . لشدة انحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها . وفاتهم ان الشريعة الفاسدة فى ايدى الجامدين أو المنافقين هى الفوضى في صورة اخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضيين ولا اعداء النظام .

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للاعمال فى مجتمعه الصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لاتجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين

وأدخل من هذا فى باب التنظيم انه اختار اولا اثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين واوصاهم ان ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه ، وانهم حين عادوا من رحلتهم اخذهم

ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع اعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم اولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة . . وهى فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم ان الاول فيهم هو خادمهم الاول ، وضرب لهم مثلا فذا فى تاريخ الدعوات ليوقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل اقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم اول الامر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا اول الامر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الايدى والرءوس

وحصر جهده كله فى تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الاعمال العامة ، فعلمهم ان يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم اذن لهم ان يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة اهلها ، ولكنه قال لهم : « لاتحملوا كيسا ولا مزودا ولا احذية ... واى بيت دخلتموه فقولوا سلام ... واى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم »

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم « الا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لانهم يلهمون فى تلك الساعة مايقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » ولم يخف عنهم انهم ملاقون ويلا من الناس فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . اما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح

وقد أثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى

مالا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء فى أداء الامانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس اقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار

وما هو الا ان حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الارض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الاوربية فأرسل صحابته الى أفريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الامم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود واصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح ان يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون اكبر النجاح الذى اصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا الى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل « السلطة »

الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء ان تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس فى انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الامم كلما احس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة فى سبيل مرضاة الناس

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال فى سفر كورنثوس الاول « ... استعبدت نفسى للجميع لكى اربح الاكثرين ، وصرت لليهودى كيهودى لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأننى بغير ناموس ... صرت لكل كل شيء لعلى استخلص من كل حال قوما ... »

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الاول اناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا فى تواريخ الاقدمين فوجدوا فى كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لايشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من اعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لانه اصعب تصديقا من القول بأن اولئك الدعاة ابرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذى لايبالى الموت تصديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذى يكذب ويعلم انه يكذب وأنه يدعو الناس الى الاكاذيب ، مثل هذا لايقدم على الموت فى سبيل عقيدة مدخولة وهو اول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات

ان يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا انهم رأوه أو سمعوه ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن ان يصدق الانسان عيانا مايصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الالوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل

وليذكر ادعياء التمحيص فى عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل فى القرن الاول للميلاد ان يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر ان يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لانه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق

ان اسخف السخف ان يقال ان دينا من الاديان قام على الاعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والاعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من احاديث هذه الخوارق والاعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل ، ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذى تلقى به الناس رسل المسيحية ، لانهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ، ونظروا امامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فأصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما اوصى تلاميذه ان يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن اقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور

الأناجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون فى القرن الاول عشرات النسخ من الاناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة اربع نسخ منها بالاقتراع - أى بكثرة الاصوات - وهى انجيل مرقس وانجيل متى وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ، مع طائفة من اقوال الرسل المدونة فى العهد الجديد

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث ان الاناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الاصل ، ومنهم من يسمى هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الاقوال ، ويريدون بها الاقوال الشفوية التى سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا فى بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخه المفقودة

أما الاناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ فى ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على مافيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات ، وتتفق الآراء على ان هذه الاناجيل لاتحتوى كل مافاه به السيد المسيح ، اذ جاءت فى اعمال الرسل التى تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد فى الاناجيل وهى « تذكروا كلمات المسيح ان العطاء مغبوط اكثر من الاخذ » ... وجاءت فى الاناجيل الاخرى التى لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع الى منتصف القرن الثانى لاتشبه الاناجيل المعتمدة فى نصوصها

وتتفق الآراء ايضا على أن نسختين من الاناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التى دون فيها ماسمعه من بطرس الرسول بغير

ترتيب وعلى غير قصد منه ان تجمع فى كتاب ، وقد كتبها فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه احد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين

والنسخة الاخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون فيها ماسمعه منه ، ولعله اضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الارجح سنة ثمانين

أما انجيل يوحنا فهو آخر الاناجيل كتابة ومراجعة ،واكثر النقاد على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون أنها بقلم يوحنا آخر كان فى افسس ولم ير السيد المسيح .. لان يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الاقوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن ان مؤلفا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى

على أن الاب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو اقدم الاناجيل ، وانه كتبه اولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما اجملته الاناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين

والترتيب المفضل عند المؤرخين ان انجيل مرقس هو اقدم الاناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهى الاناجيل الثلاثة التى اشتهرت باسم اناجيل المقابلة ، لامكان المقابلة بين مافيها من الاخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الاصل مرسلة بغير اقسام وبغير مواضع للوقت

والالحاق، ولم تقسم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال أن الاناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح، لانها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولانها فى أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولانها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال

وانما الصواب أنها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ، اذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الاول للميلاد

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب « الامم » ولا يتحفظ فى سرد الاخبار الالهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل « المحافظين » والايمان بالاهية المسيح

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير ، فيورد فيه الاخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الالهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من

من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد

ونحن قد عولنا على الاناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والاخبار ، فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والاخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الاغراض المقصودة وغير المقصودة ... فهل وراء هذه الاخبار «شخصية متناسقة» مفهومة ؟ ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والاخبار ، وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول

ومن الامثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب وليس هو المألوف الذي يدعو الى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الاديان ، فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة في تفسير

مسألة من المسائل ؟ فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل فى امكانها أو استحالتها ، لان التفسير الذى يقبله كل انسان يغنى عن التفسير الذى يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة

أما رأينا نحن فى امكان المعجزات فهو رأينا فى امكان جميع الاسباب . فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال أن هذه الاسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الاشياء ، واصح مايقال فيها قول الغزالى رحمه الله أن الاسباب والمسببات تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الاوقات ، والا لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الاخرى ولا يقول بذلك عقل سليم

فاذا كان العقل لا يعلل الاسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الاسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الاديان

ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الاناجيل لان تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس فى الاناجيل أن معجزات الميلاد حملت أحدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة ، وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل

الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات

وبعد فمن الحق أن نقول أن معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم اقليم واحد ، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والاحساس

الباب الرابع
الختام

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الاناجيل ، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه ، لان سياق الحوادث مختلف في الاناجيل الاربعة ، وبعض الاناجيل قد سجلت ماسمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الازمنة التي وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه أنه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الاناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين ، احداهما حادثة السفر الى مصر وهو رضيع ، والاخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الاولى انجيل متى فقال ان « ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا : قم وخذ الصبي وأن اهرب الى مصر ... لان هيرود مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وبقي فيها الى وفاة هيرود » ثم

قال : « وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فمادونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة فى غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الاسرة فى بيت لحم - وهى من الناصرة - لان الاحصاء الذى أشار اليه انجيل لوقا وقال أنه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر فى السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس .

أما الانجيل الذى توسع فى وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذى روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع ... » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى أورشليم ليقدموه للعرب ... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهى القربان المقبول من الفقراء .

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى اورشليم فى عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد ، وبقى الصبى عند رجوعهما فى أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . واذظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الاقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يابنى . لماذا فعلت بنا هكذا . . . فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ الم تعلما حيث ينبغى أن أكون فيما لابى » . فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما

... وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عندالله والناس»

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن ليعتمد منه - كما ورد فى انجيل متى - فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى الى ؟ فأجابه يسوع تسمح الآن ، لانه هكذا يجمل بنا أن نستوفى كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات يقول : هذا هو ابنى الحبيب » .

وفى انجيل غير الاناجيل الاربعة المعتمدة - وهو انجيل العبريين - رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه واخوته قالوا له أن يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا . فقال لهم : « أى خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدى ! اللهم الا أن يكون هذا القول الذى قلت » .

وليس فى الاناجيل ولا فى غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح فى طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية فى ذلك العصر يبدأ فى مكتب ملحق بالبيعة فى كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر فى المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها فى الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها

المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الامل ، لان الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الاسرة الى بيت لحم عند مولده ، لانها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى اسفار من النبوءات أن بيت لحم هى مولد المسيح الموعود ، لانها موطن داود .

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع الى شىء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والاحبار .

ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الاردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا الفتى ابن الثلاثين فى ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها فى نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها فى مثل تلك النفس أن تعزز فيها الامل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هى احدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التى عالجها كل

نبى قبل أن يصدع بما أمر به ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد أن صام فى البرية اربعين نهارا واربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم يه المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة واوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لانك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع . ومكتوب ايضا ألا تجرب الرب الهك . ثم أخذه ابليس الى جبل عال وقال له أعطيك هذه جميعها أن سجدت لى .. قال يسوع : اعزب عنى أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد .. » .

قال انجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا اسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وبدأ رسالته داعيا الى التوبة ، لانه قد اقترب ملكوت السماوات

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردته كلمات النبى النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التى مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها

فى كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الارزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ ...
كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الايمان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى نبوى بالرسالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وأن فترة الخلوة فى البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحده فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعى العمل فى ضميره السليم .

انه اذا أقدم على أمر من الامور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى

يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لان العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس أن الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الامان . فالخطر اذن أحب من الشك ، وكل شىء اذن أسلم من الامان الذى لا يأتى الا بضمان من البرهان .

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق ... ليفعل مايتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة ، ولم يقل لاحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الاولى فى الجليل بصبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص الا يثير الناس على السلطان الحاكم ولايثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضى فى خطوة أخرى بعد الخطوة الاولى التى انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هى الدعوة الانسانية العامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وأبقى ،

وعلى الصفة التى ثبتت له فى طوية ضميره وهداه اليها وحى الله ، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء .

أما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرامة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والابوة الالهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الانبياء فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات (٦ تكوين) »

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه « أنتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) ... ووردت كذلك غير مرة فى المزامير حيث قيل « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين أبناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب « أنتم أبناء الله الحى » .

أما فى العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الاب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ ان « أباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

اما ابن الانسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الارامية وباللغة العبرية ، وهى بالارامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهى بالعبرية « ابن آدم » وتطلق فى

كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الاحياء .

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فينـاديه بابن الانسان .

ووردت مرة فى سفر دنيـال بلسان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الانسان (٨)

ووردت فى هذا السفر باللغة الارامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة انسان رآه النبى فى رؤى الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما فى كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع بمعنى « الانسان » ومنها قول السيد المسيح فى انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢)

وقد جاءت أحيانا مرادفـة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء فى لوقا ١٢ ... « كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله » وجاء فى متى ١٠ « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى الذى فى السماوات » .

وورد فى متى ١٦ « انه لمـا جاء يسوع الى نـواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ابن الانسان؟ »

وورد فى مرقس ٨ « ثم خرج يسوع وتلاميـذه الى قرى قيصرية فيلبس وفى الطـريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ؟ »

فهى فى بعض الاناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولابد ان يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال « كما يجمع الزوان ويحـرق بالنار هـكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسـل ابن الانسـان ملائكتـه فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متى (١٣)

وهى اشارة كاشارة دنيـال الى يوم الدينونة ، وصيغتهـا بالآرامية واحدة فى الموضعين .

هذه هى الاسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى ابان دعوته الاولى أو عند نهايتها ، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : « لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحدا صالحا الا واحد ، وهو الله » .

وعند نهايتها سـأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان

وغنى عن القول أن هـذه الاسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها فى ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منهـا غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان »

***

لو جرت الامور فى مجـراها الذى استقامت عليه الدعوة فى الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة فى طريقهـا سنوات دون أن تشتبك فى حرب صراح مع دولة الكهانة فى بيت المقدس

ولكن الحوادث حكمت حكمها فى السنة التى تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الاسر اليهودية، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه وأخوته وذوو قرباه

وكان عليه السلام يجارى أسرته فى هذه الشعائر التى لا ضير فيها ، ولم يكن يضيق على الناس فى المحافظة على المأثورات التى تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته فى أفراحها القومية ويذهب الى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التى كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بنى اسرائيل

وفى سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط أنه تخلف عنه فى احدى السنوات منذ بشر برسالته فى الجليل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود الى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن فى العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان فى نضال

لكن كيف يكون الذهاب الى بيت المقدس فى هذه السنة ؟

انه لا يذهب الى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون فى السنوات الماضية

انهم يعدون الآن بالالوف فى أنحاء الجليل ، واذا قدرنا أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم الى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم الى المدينة ؟ ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث

أيذهب الى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والاتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذى لايسهل معه التخفى والاستتار

وماذا يقع من أثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، وتستتر لسبب من الاسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق الى الاذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب الى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين

وأدل شىء على أن الموقف الاخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف ـ موقف استخارة الحوادث ـ انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : « اعبر عنى هذه الكأس يا أبتاه ٠٠ كما تريد أنت لا كما أريد » ٠٠ ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة ٠ أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف »

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم أنها غزوة فتح تنجلى عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوأ مايكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة

الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب

وتروى الاناجيل أنه عليه السلام دخل الى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود ، وأنهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد الى آخر الزمان

ويفهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون »

ولم تسمع منه فى رواية الاناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو اليه ، وانه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش

***

الا أنه من اللحظة الاولى فى بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التى ترصد له فى كل خطوة ، وعرف من الاسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه ، اذ كانت هذه الاسئلة جميعا تنزع الى هدف واحد وهو استدراجه الى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى مواضع العنت والاحراج

تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لان أحدهم وهو - نيقوديموس - كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لابد أن يحدث في عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت الى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة الى مغارة لصوص

وكانت هذه هى الوقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة الى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة

فليس للتاريخ كلمة راسخة فى خبر من الاخبار التى أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية

ففى حادثة الاعتقال لا يدرى متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يهتدى اليه بغير دليل

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم بالليل وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد

جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من اعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يو حنا أن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الاستاذ ريشارد هزباند Husband فى كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين الى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين أنه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والاخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر أبريل . أما السنوات الاخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الاربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الاحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين

ومن الاخبار عن يوم التنفيذ أن الارض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون فتح فى اليوم التالى فلم توجد وروى نقلة الاخبار أن القبر يمشون بين الناس فيه جثة ، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا أنه طيف « جسونى وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام » ... « وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلى Cheyne والاستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص

بالدراسات الاثرية فى مصر والشرق الادنى والدكتور هوجو تول Toll السويدى وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا الى التفرقة فى أخبارهذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد

ومن الاخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله فى هذا الصدد ، لانه محل نظر كبير ، وهو خبرالضريح الذى يوجد فى طريق « خان يار » بعاصمة كشميرويسمونه هناك ضريح النبى أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الاعظمى الذى دون قبل مائتى سنة أن الضريح لنبى « اسمهعوس آصاف » ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم أنه قدم الىهذه البلاد قبل ألفى سنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربى يسمى « اكمال الدين »محفوظ من الف سنة أن اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وأنه قال عنه أنه رحالة ساح فى بلاد كثيرة ، وأن كتاب «برلامديوشافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف أنه صاحب «بشرى» وأنهم يحفظون مثلا من أمثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة : « وجعلنا ابن مريموأمه آية وأويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » وأورد تعليقايقرب منه فى تفسير قوله تعالى « انى متوفيك ورافعك الى »وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام

***

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورةعصرية ، نفهمها الآن كما نفهم

العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية فى تواريخ الازمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا ان نوفق لزيادة شىء الى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا فى هذه الصفحات الى اثارة الجدل فى مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت فى موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التى تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة الى هداية الهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الانسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجددت فيه ، ثم قامت للضمير الانسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما الهم داعيها ان يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان

الغاية بعد كل ختام

في احدى روايات الكاتب الروسى العظيم ـ دستيفسكى ـ بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الارض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى أبان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ـ المفتش الاعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق

ويأتى المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : اننى أعرفك ولا أجهلك، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول : انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التميز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لانفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ... والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ـ؟

ليس أثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه فى الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض اليه الامر فى اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد أن يفتح عينيه وأن

يتطلع الى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، والا أسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم الى المفتش الاعظم - وهو شيخ فان فى التسعين - فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد ماقاله المفتش الاعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه

كلا . ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شىء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الاعظم فى نقمته على الرسول الكريم

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح الى الارض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين

ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تفوه به الالسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحى الحى فى طوية الانسان لا فى طوايا الكتب والاوراق

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة، وان يجد انسان اليوم كانسان الامس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ،وفى اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم !

ذلك أقرب شيء أن يكون

وأقرب شيء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدى الى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتى الانبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون؟ فيم كل هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان

جاءوا وعادوا

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون

ليست حرية الضمير مطلباً محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطاً بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوماً الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات

منذا يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء

منذا يقول أن عناء الطب باطل اذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء

منذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الاسرار فى حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة ان الشر واقع ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه

واذا وقع اثنان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو

مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لاينالها ، ومادام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء

واذا قلنا يوما ان الانسان فى هذا العصر يطلب الخير ولايدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذى كان لايطلبه ولا يعرفه وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم

انما تقاس الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان «العارفون» يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا ان دينا من

الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى، باق فيها الكفران

أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لاتعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الالفيه » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون «الالفية» • • وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التى لاموضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لاختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم الناس فى العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ ان عقيدة الانسان شىء لايأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعى أو ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته • فالعقيدة مسألة الانسان ، لاشأن للأنبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان

الجيل الجديد

في عهده الجديد

انقلاب في الصحافة